٢٠٢٢

الإرهاب: بين تفكيك الخطاب المتطرف وجرائم الكراهية

سعود الشرفات
كاتب أردني

الإرهاب الإلكتروني..
الرعب على الأبواب

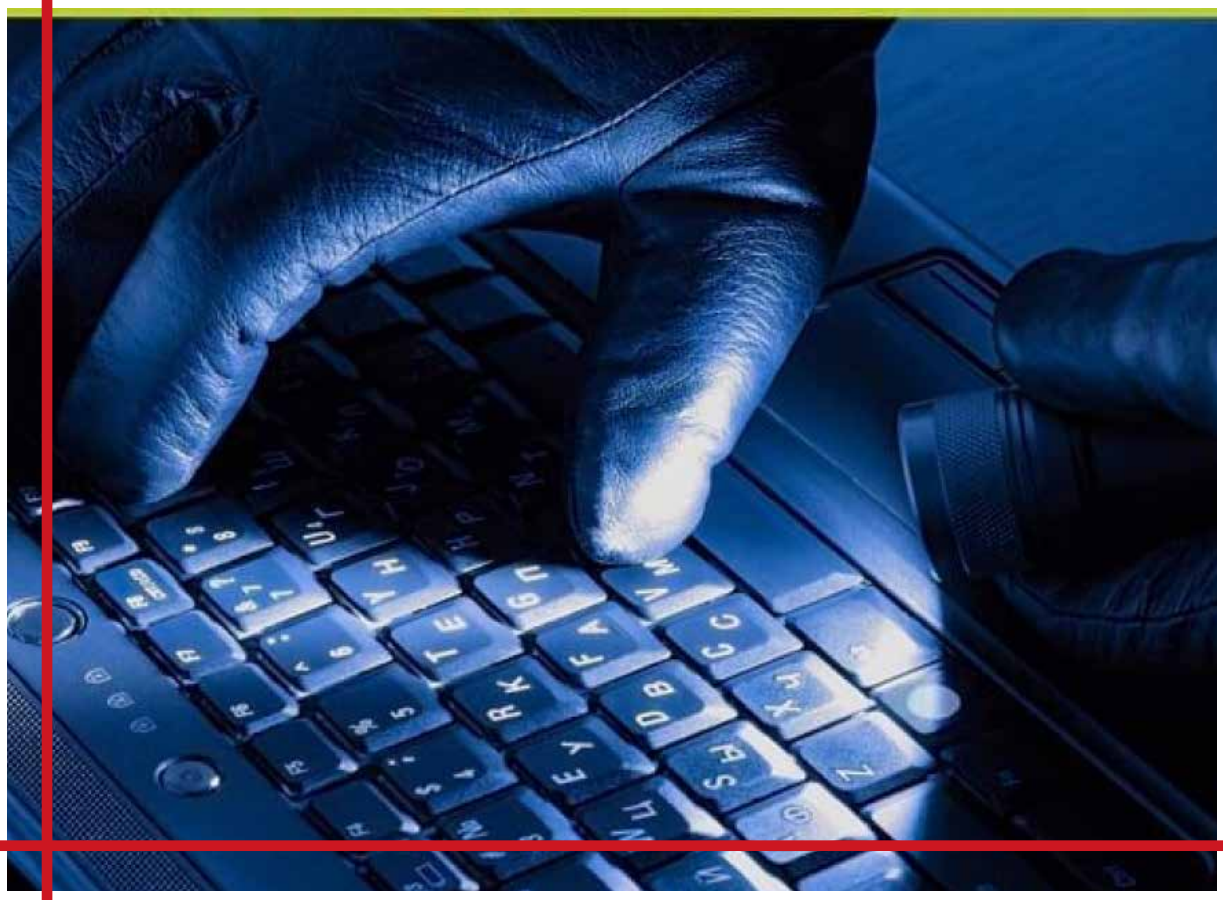

يعـرَّف «الإرهـاب الإلكـتروني» بأنّـه: «اسـتخدام التقنيـات الرقميـة لإخافـة وإخضـاع الآخريـن، أو القيـام بمهاجمـة نظم المعلومـات عـلى خلفيـة دوافـع سياسـية أو عرقيـة أو دينيـة»، ويعـدّ الأمريـكي (بـول كوليـنز) أول مـن صـاغ هـذا المفهـوم.

ومنـذ بدايـة الألفيـة الثانيـة، لـم يعـد شيء يثـير الذعـر لـدى الأجهـزة الأمنيـة والاسـتخبارية، وأجهـزة مكافحـة الإرهـاب في العالـم، خاصّـة في الغـرب وأمريـكا، تحديـداً أكـثر مـن الرعـب والخـوف مـن «الإرهـاب الإلكـتروني»، ومرادفاتـه (الشـبكي أو السـيبيري).

وإذا كان هنـاك مـن اتجـاه في ظاهـرة الإرهـاب يمكـن أن يكـون محتمـل الحـدوث والزيـادة، فـإنّ الإرهـاب الإلكـتروني هـو عـلى رأس هـذه الاحتمـالات وأكثرهـا كارثيـة.

«لم يعد شيء يثير الذعر لدى أجهزة مكافحة الإرهاب في العالم أكثر من الرعب والخوف من الإرهاب الإلكتروني»

ولعلّه من المفيد عالمياً، أنّ هذا النوع من الإرهاب لا يزال، حتى الآن، يأخذ شكل «إرهاب الدولة»، ولم يصل، أو يتجذّر، كأسلوب في تنفيذ الإرهاب بيد الأطراف الفاعلة من غير الدول مثل؛ الجماعات والمنظمات الإرهابية. كما أنّ ما يرتكب من قبل أفراد أو مجموعات صغيرة من الأفراد «عصابات»، وهم ينتشرون في كثيرٍ من الدول، يتركز حتى الآن في عمليات الغشّ والاحتيال، وتبييض الأموال عبر ما يعرف بالشبكة السوداء.

ولذلك، بدأ هذا النوع من الإرهاب يحظى بدراسة واهتمام من قبل الأجهزة الأمنية والاستخبارية في العالم، كما أخذ يحظى باهتمام الباحثين والخبراء والأكاديميين المهتمين بظاهرة الإرهاب، خاصة أنّ هذا النوع من الإرهاب لا تقتصر آثاره الكارثية فقط على الخسائر في الأرواح؛ بل في خسائره الاقتصادية والسياسية، والاجتماعية، والثقافية. وبغضّ النظر أكانت الدولة صغيرة أو كبيرة، قوية أو ضعيفة.

وتعدّ الصين الشعبية، وروسيا الاتحادية، وكوريا الشمالية من أكثر الدول المتهمة بممارسة هذا الإرهاب، ولعلّ أهم مثال على إرهاب الدولة الإلكتروني، هو تجسّس الروس على الانتخابات الأمريكية التي فاز بها دونالد ترامب، ولا تزال تلقي بظلالها على العلاقات الأمريكية الروسية وتثير جدلاً داخلياً في أمريكا.

يمكن القول إنّ هذا النوع من الإرهاب العالمي؛ هو الأكثر تمثيلاً وتجسيداً وتعبيراً عن العولمة، ويشكّل هذا النوع، أو هذا الرأس الهيدري المتوحّش (نسبة إلى الوحش الأسطوري في الميثولوجيا الإغريقية هيدرا)، أحدث وأخطر أنواع الإرهاب فتكاً بالأطراف الفاعلة من الدول، نظراً إلى كثافة استخدامه آليات العولمة التكنولوجية المختلفة، ومن أحدثها شبكة وسائل التواصل الاجتماعي، والاستخدام الإستراتيجي للتحفيز البصري، وصور العنف الرهيبة، ومصفوفة طويلة من المتطفلين الشبكيين (والهاكرز)، ودون الخوض بالتفصيل في هذا النوع، تكفي الإشارة هنا إلى الكارثة الاستخبارية التي تسبّب بها (جوليان بول أسانج)، مؤسّس موقع (ويكليكس) للمجمع الاستخباري (الأمريكي)، والعالمي بشكل عام، بتسريبه آلاف الوثاق السرية لوسائل الإعلام بالتعاون مع الجندي الأمريكي، برادلي مينينغ، عام ٢٠١٠،

«ما يرتكب من قبل أفراد أو مجموعات صغيرة وهم ينتشرون في كثيرٍ من الدول يتركز في عمليات تبييض الأموال»

ثمّ الهلع الذي أصاب العالم الغربي بعد تسريبات المحلل الاستخباراتي الأمريكي، إدوارد سنودن، أواخر ٢٠١٣.

ولذلك ليس من المستغرب، حساسية وخوف الساسة الأمريكان أكثر من غيرهم من خطورة هذا النوع من الإرهاب، فقد كان الرئيس الأمريكي بيل كلينتون، قبل عقدين من الزمن، عام ١٩٩٦، قد قام بتشكيل «لجنة حماية منشآت البنية التحتية الحساسة».

وكان الاستنتاج الأول لهذه الهيئة؛ هو أنّ مصادر الطاقة الكهربائية والاتصالات، إضافة إلى شبكات الكمبيوتر، ضرورية بشكل قاطع لنجاة أمريكا من هجوم مماثل، وبما أنّ هذه المنشآت تعتمد بشكل كبير على المعلومات الرقمية، فإنّها ستكون الهدف الأول لأية هجمات إرهابية تستهدف أمنها.

وفي أعقاب ذلك، قامت كافة الوكالات الحكومية بإنشاء هيئاتها ومراكزها الخاصة، للتعامل مع احتمالات الإرهاب الإلكتروني؛ فقامت وكالة المخابرات المركزية بإنشاء مركز حروب المعلوماتية، ووظّفت ألفاً من خبراء أمن المعلومات، وقوة ضاربة على مدى ٢٤ ساعة لمواجهة الإرهاب الإلكتروني.

وقد بدأ هذا الخوف والتحذير الجدّي من خطر هذا الإرهاب، عقب هجمات ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١، وحرب أمريكا على الإرهاب، وشعور الساسة والخبراء الأمريكان بأنّ مصالحهم في العالم أصبحت مستهدفة أكثر؛ حيث يخشى الخبراء الأمريكان أن يأخذ أيّ هجوم إرهابي إلكتروني في المستقبل، على أمريكا، أبعاداً أكثر خطورة، بحيث يصيب شبكات حيوية رئيسة بالشّلل، خصوصاً إذا ترافق مع هجوم أكثر كلاسيكية.

فقد ذكر مايكل فاتيس، المدير السابق لوحدة الجريمة عبر المعلوماتية في الشرطة الفدرالية، أنّ إمكانية شنّ هجمات عبر الإنترنت ضدّ الشبكات المعلوماتية للولايات المتحدة وحلفائها، تشكل فرضية قوية، وأنَّه ثمة خطر شنّ هجوم معلوماتي يتسبَّب بأضرار كبرى، وأنّ شنّ هجوم من هذا النوع قد يضعف، إلى حدّ كبير، الشبكات المعلوماتية للولايات المتحدة وحلفائها.

«هاريس ميلر، المسؤول في جمعية تكنولوجيا المعلومات الأمريكية: العدد المتزايد للهجمات المعلوماتية، يؤكّد هشاشة وضع الولايات المتحدة»

وأوضح هاريس ميلر، المسؤول في جمعية تكنولوجيا المعلومات الأمريكية، أنّ العدد المتزايد للهجمات المعلوماتية، يؤكّد هشاشة وضع الولايات المتحدة، وقال: إنّ «الإرهابيين يستطيعون أن يستعملوا البنى المعلوماتية ضدّنا، عبر شلّ شبكاتنا، وإثارة خلل في العمليات في شكل مباشر، والتسبّب بأضرار للشبكات والأفراد».

وعدّ السيناتور الأمريكي روبرت بينيت، أنّ هذه الهجمات يمكن أن تتزامن مع هجمات أكثر أهمية، «لإحداث أقصى درجات الخوف والترهيب، و»في حال تنفيذ هجوم على أهداف ملموسة، ستكون الأضرار أكبر، إذا ترافق مع هجوم ثانٍ ضدّ الأجهزة المعلوماتية التي تتولّى تنسيق عملية الردّ على هذه الكارثة»، وأضاف: «سيحصل تدمير، كما أنّنا لا نستطيع أن نقوم بأيّ شيء للرد على الهجوم؛ لأنّ شبكاتنا المعلوماتية ستكون مشلولة».

وذكر دوين أندرو، المسؤول السابق في البنتاغون، أنّ مستوى التحضير لمكافحة هذا النوع من الهجمات في الولايات المتحدة «سيئ»، وعدّ وليام وولف، رئيس الأكاديمية الوطنية للهندسة الأمريكية، أنّ ضمان أمن الشبكات يستند إلى تقنية «جدار النار» (تقنية لحماية النظام المعلوماتي)، وهي غير فاعلة، وقال في جلسة استماع أمام الكونغرس الأمريكيّ: إنّ «الأمن المعلوماتي الفعلي يجب أن يشمل ردّاً ناشطاً، ونوعاً من الترهيب، وثمناً يدفعه المعتدي، إلى جانب الدفاع الذاتي».

ولقد شهدت أمريكا أوّل حادثة موثقة لعملية «إرهاب الإلكتروني»، عندما قامت وزارة العدل الأمريكية، عام ٢٠١٦، بالتنسيق مع الحكومة الماليزية، باعتقال وترحيل، ثم اتّهام المدعو «أردت فاريزي»، من أصولٍ كوسوفيه، وعمره ٢٠ عاماً، بالدخول (تهكير)على معلومات مهمة لوزارة الدفاع

«دوين أندرو، المسؤول السابق في البنتاغون: مستوى التحضير لمكافحة هذا النوع من الهجمات في الولايات المتحدة «سيئ»»

والحكومة الأمريكية، لأكثر من ١٣٥١ موظفاً حكومياً، وبيع هذه المعلومات لتنظيم داعش في عملية عرفت في وسائل الإعلام باسم «لائحة القتل»، والحكم عليه بالسجن لمدة ٢٠ عاماً.

تجدر الإشارة إلى أنّ الساحة الأردنية شهدت أوّل حادثة من هذا النوع، عندما نظرت محكمة أمن الدولة الأردنية، في ١٣ شباط (فبراير) ٢٠٠٥، وللمرة الأولى، في قضية المتهم مراد خالد العصيدة، البالغ من العمر ١٨ عاماً، عندما قام بإرسال عدة رسائل تهديد لدائرة المخابرات الأردنية، للقيام بعمليات، وادّعاء تحضير سلسلة من الهجمات الإرهابية على بعض المصالح في عمان، باستخدام خدمة (الإنترنت) في أحد المقاهي المخصصة لذلك في مدينة الزرقاء.

الإرهابي في عين الآخر

تبدو صورة الإرهابي الأولية ثم هويته المُتشكلة معقدة ومشتتة جداً بين هويات يصنعها له الآخر؛ وهوية -ربما- يريدها لنفسه. ثلاث هويات وصور مكثفة: حقيقية وفعلية ومرغوبة، كلها تتصارع عقب تنفيذه للعمل الإرهابي. كيف ينظر الآخر إلى الإرهابي، وكيف يبدو في عين الآخر بعد أن ينفذ عمليته الإرهابية ويوصم فعله بالإرهاب، ثم تبدأ وسائل الإعلام المختلفة بالحديث عنه وعن عمليته الإرهابية؟ لقد كنتُ؛ وما زلتُ أعتقد أنّ ظاهرة الإرهاب المعاصر، بكل تجلياته وتمظهراته القومية والدينية المسيطرة الآن، إحدى أهم تجليات سيرورة العولمة وحاملتها الرئيسة التكنولوجيا الحديثة في المواصلات والاتصالات ووسائل الإعلام المختلفة وشبكاته المعقدة والكثيرة للتواصل الاجتماعي. لقد جذب انتباهي، كمتخصصٍ ومتابع منذ ثلاثة عقود لسيرورة العولمة وظاهرة الإرهاب المعاصر؛ الصورة المكثفة والواسعة، والهوية الأقرب إلى الرومانسية التي يوصف بها الإرهابي، خاصة بعد أن ينفذ عملية إرهابية فيقْتُل؛ ويُقتَل أو يُعتقَل. يضطلع برسم هذه الهوية ، التي تغذيها وتنشرها بتسارعٍ وتكثيف كبير آليات العولمة

التكنولوجية عبر وسائل الاتصال والإعلام، أولاً: الدائرة الضيقة والمحيط القريب من الإرهابي؛ عائلته، أصدقاؤه الحقيقيون والافتراضيون على الشبكة، وجيرانه وزملاؤه في العمل أو الهوايات المشتركة، وفي بعض الأحيان الأجهزة الاستخبارية التي تراقبه سواء بشكل دائم وحثيث، أو تضعه على قائمة المشتبه بهم فقط. ظاهرة الإرهاب المعاصر، بكل تجلياته وتمظهراته القومية والدينية المسيطرة الآن، إحدى أهم تجليات سيرورة العولمة، وحاملتها الرئيسة التكنولوجيا الحديثة هذه الدائرة تضطلع بصناعة ورسم هوية أقرب ما تكون إلى «الهوية المرغوبة» في مقابل الحضور الطاغي للهوية الفعلية للإرهابي؛ كإرهابي نفّذ عملاً إرهابياً على أرض الواقع. تأخذ هوية الإرهابي وصورته، كما تنقلها لنا وسائل الإعلام والتواصل المختلفة على لسان ممثلي هذه الدائرة على نحو قريب من السذاجة الرومانسية على وقع الصدمة والمفاجأة والإنكار وعدم التصديق المشوب بالحيرة بناء على تجليات متنوعة لهوية فعلية كان يظهر بها الإرهابي في عيونهم بأنه: شخص مسالم، هادئ ووديع، قليل الكلام والاختلاط، يعاني من بعض المشاكل النفسية، ومشاكل في العمل، لم يكن متديناً لا يصلي ولا يصوم، ولا يذهب إلى المسجد، ولا يشارك في المناسبات العامة ولم يكن تظهر عليه علامات التطرف بأي شكل، والكثير المتنوع من التفصيلات الخاصة والدقيقة والحساسة جداً، سيما تلك التي يتولى عرضها أفراد عائلة الإرهابي. هنا تظهر هوية الإرهابي في غاية التعقيد والتمزق بين هوية حقيقية، وأخرى فعلية، وهوية مرغوبة قريبة من «هوية متخيلة»، حسب بندكت أندرسون، لكن باختلاف أنّ هذه الهوية الحديثة -هوية العالم الافتراضي - برزت كأحد أهمّ تجليات سيرورة العولمة وآلياتها التكنولوجية في الاتصالات والتواصل على مواقع مثل؛ فيسبوك وتويتر، وواتس أب، وتيليجرام. ثانيا: الدائرة الأوسع والمحيط البعيد من الإرهابي. أعتقد أنّ الأكثر أهمية في هذه الدائرة هي الأجهزة الاستخبارية ووحدات مكافحة التطرف والإرهاب فيها، ثم وسائل الإعلام ورجال الدين، والصحفيين والمحللين والخبراء في مختلف التخصصات التي تهتم بظاهرة الإرهاب المعاصر اليوم. وأرى أنّه بفعل العولمة التكنولوجية يحدث نوع من التماهي بين الدائرتين؛ حيث يغدو من الصعب الفصل بينهما؛ لأن أهم تجليات العولمة اليومية هو ذوبان صمغ الحدود بين الفضاء العام والخاص حتى أن هذا التماهي يؤدي في النهاية إلى تشكيل صورة واحدة لكنها هجينة لصورة الإرهابي. وسواءً أكانت صورة الإرهابي في بلد عربي أو أي مكان في العالم؛ أوروبي أو أمريكي فإنّ هناك عدداً من الملاحظات السريعة والأولية التي تبدأ بالظهور لوصف وتعريف هوية الإرهابي من قبل الآخر. تنقل لنا وسائل الإعلام، صورة ساذجة ورومانسية للإرهابي على وقع الصدمة والإنكار بناء على تجليات متنوعة لهوية فعلية كان يظهر بها مع ضرورة

الإشارة إلى أنّ الكثير من هذه الملاحظات رصدتها من الفضاء الأوروبي والأمريكي خاصة بعد سلسلة العمليات الإرهابية التي نُفّذت عن طريق ما بات يُتعارف عليه في أدبيات الإرهاب المعاصر بإرهاب «الذئاب المنفردة» والذي تبنّاه تنظيم داعش منذ العام ٢٠١٤م. وهذه الملاحظات هي: الشعور الساذج بالمفاجأة والصدمة من قبل الأجهزة الأمنية. وهو ما سبق وصفته في مناسبات أخرى تحت متلازمّة (الذئب المنفرد والراعي النائم) بمعنى أن الراعي يعرف أن الذئب لا يحترم الراعي البتّه، كما أنّه لا يشفق على النعاج وبهمها الصغير الوديع، مع ذلك ينام الراعي قرير العين حتى يعدو الذئب ويوغل افتراساً في القطيع ثم يصحو متفاجئاً متفجعاً من هول ما حدث. هذه المتلازمّة تجلت بشكلٍ واضحٍ وواسع جداً في كل العمليات التي جرت في السنوات الأخيرة في أمريكا وأوروبا، وفرنسا تحديداً، التي أعلن تنظيم داعش مسؤوليته عنها. ويكفي للتدليل على ذلك العودة للتصريحات والخطابات والمؤتمرات الصحفية للساسة ورجال الأمن الفرنسيين بعد كل عملية إرهابية؛ حيث نجد أنّ الجملة المرعبة والصادمة التي تتردد عند الكل منهم هي: يبدو أنّ هذا الإرهابي قد تطرف دينياً في فترة وجيزة بفعل دعاية تنظيم داعش – أو غيره - من خلال شبكات التواصل الاجتماعي! وأمام تجليات العولمة التكنولوجية المذهلة مثل؛ أنّ هناك (١٠٠) مليون ساعة مشاهدة فيديو عبر موقع فيسبوك وحده عام ٢٠١٦م يقف الإنسان العادي، والخبير، والمحلل، ورجل الأمن مشدوهاً وسط هذا العالم الذي يتشكل ويصنع وتنغمس به الهويات وتتمزّق بين الفعلي والحقيقي والمرغوب فلا يجد بدّاً من اللجوء الى حيلة «الخداع المعرفي»، والركون إلى تحديد هوية الإرهابي الفعلية وكفى، ليهرب من وزر الإخفاق والفشل الأمني- الاستخباري في فهم الهوية الحقيقية للإرهابي، والهروب من رسم أيّ هوية مرغوبة للإرهابي سواء أكانت إيجابية أو سلبية.

المفاهيم المختلطة: كيف نفصل بين الإرهاب وجرائم الكراهية؟

تحديد المفاهيم وتعريفها؛ طريقة فكرية غرضها التوضيح، ويفترض أن تكون محايدة، يلجأ إليها الباحثون لشرح وإيصال معنى شيء مبهم، أو غير معروف، أو غير متفق عليه؛ عن طريق محاولة ربط الكلمات أو الرموز بالأشياء أو الأحداث، ربطاً موضوعياً، مبنياً على المشاهدة والخبرة والتجارب، ويكون عادة مبنياً من تصورات تحصل من خلال الحواس الخمس، ومن الذكريات والتخيلات ومن نتاج الفكر الخيالي التأمّلي، خاصة تلك التي كانت متوفرة لدى الباحث وقت إجراء البحث.

يصعب تحديد معنى مفهوم الإرهاب، وذلك لاختلاف تعريف الناس وفهمهم له، وعليه؛ فليس له تعريف محدَّد، أو فهم موحّد؛ لذلك يلتبس مفهومه بمنطوقه.

«تبدو الحاجة ملحّة إلى إعادة النظر في مفهوم الإرهاب التقليدي وتعريفه لتجريم ظواهر خطيرة جداً»

غير أنّ تعقّد الظواهر والتباسها، لا يعني النكوص عن دراستها وتحليلها؛ بل تحطيمها بمعاول البحث والدراسة، والسهر والإصرار، لاكتشاف كنهها ومآلاتها؛ وإلا تعطلت الحياة.

وقد أثار مفهوم الإرهاب جدلاً متشعباً وواسع النطاق (معولم)، سواء من حيث تحديد المفهوم، أو الخلفيات، أو تأثيره في الدولة، أو من حيث الأسباب، لكنّ المميز هو أنّ الجدل اتخذ طابعاً سياسياً، بعد هجمات ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١؛ لذلك صرّح الرئيس الأمريكي، جورج بوش الابن، قائلاً: «إنّ الحرب على الإرهاب: نضال من أجل الحضارة، وحرب سترسم مسار القرن الحادي والعشرين، وهي أكبر من الصراع العسكريّ، وستحدّد مصير الملايين عبر العالم».

لقد فتحت تلك الهجمات الباب على مصراعيه لإعادة فتح هذا الملف؛ الذي بقي لفترة من الزمن وكأنه يخصّ فئة أو منطقة جغرافية بعينها، إضافة إلى أنّها هزّت واقع النظام العالميّ، وزعزعت عدداً من المبادئ المستقرة لما يسمى «بالنظام الويستفالي» للدول، كذلك غيّرت وبدّلت وخلّفت كثيراً من المفاهيم والمسلّمات، السياسية والثقافية، وسط تصادم عوالم القوة والقانون والإرهاب والحوار.

وعند النظر في التعريفات المختلفة للإرهاب؛ يبدو التعريف الفرنسي مميزاً وفريداً؛ إذ يعرّف الإرهاب بأنه: «عمل مستهجن، يتم ارتكابه على إقليم دولة أخرى، بوساطة أجنبي، ضدّ شخص لا يحمل جنسية الفاعل نفسه، بهدف ممارسة الضغط في نزاع لا يعدّ ذا طبيعة داخلية».

إنّ التنوّع الكبير في تعاريف الإرهاب دفع ببعض الباحثين في القسم الفيدرالي بمكتبة الكونغرس الأمريكي، مثلاً، إلى الإشارة إلى أنّ هذا التنوّع يبدو غير ملائم؛ لذلك فإنّ كثيراً من الباحثين يهملون تعريف هذا المصطلح أو المفهوم، الذي تبدو سلبياته وإشكالياته فيما يأتي:

أ ـ المفهوم غامض وغير محدّد.
ب ـ التباين والاضطراب في تحديد المفهوم.
ج ـ تعدّد تعريفات المفهوم وتضاربها.
د ـ نسبية التعريفات الموجودة ما يحتمل وجود بعض التباين والاختلاف بينها.
هـ ـ عدم وفاء اللفظ للمعاني الداخلة فيه.

تعمل ضغوطات الإرهاب بفاعلية كبيرة، تتجاوز ردّ الفعل الآليّ التجزيئي، إلى ردّ فعل كلّي تجاه كلّ سياسات «مكافحة الإرهاب»، التي اتخذت شكلاً عولمياً، وبات بعض الغربيّين يرون أنّ شبكات الإرهابيين

«في ظلّ وجود الكثير من الأدبيات السطحية المتحيزة بقيت مشكلة تعريف مفهوم الإرهاب ماثلة ومستمرة»

تشكّل اليوم نوعاً جديداً من العولمة العسكرية -الأمنية.

لم يُدرَس الإرهاب على أنّه حقل مستقلّ للدراسة (Discipline)، ولم يَحظ باهتمام الباحثين، سواء في الغرب أو في العالم الإسلامي، إلا بعد هجمات ١١ أيلول (سبتمبر) العام ٢٠٠١، أما قبل ذلك؛ فقد كانت هناك محاولات متفرقة، خاصة في الدراسات الأمنية الحكومية، لكنّها لم تكن حقلاً معرفياً (إبستمولوجيا) مستقلاً، وقد كان هذا الأمر مبعث شكوى لدى بعض الباحثين في هذا الحقل.

وبعد هجمات ١١ أيلول، برزت مفاهيم جديدة، زادت صعوبة الدراسة في هذا الحقل؛ حيث تغيرت بعض المُسلَّمات والمفاهيم؛ مثل المفهوم الذي استُخدم للمرة الأولى في التاريخ، لوصف مقاتلي القاعدة وطالبان، وجاء على لسان جورج بوش الابن، وهو: «المقاتلون غير الشرعيين»، وذلك كي يتهرّب من اعتقالهم خارج أمريكا، في خليج غوانتنامو، وقد أكّد بوش الابن، أيضاً، في مذكرة سرّية، أنّ «أمريكا، بعد أحداث ١١ سبتمبر لم تعد هي التي تحدّد السياسة العالمية؛ بل الإرهابيون»!

وإلى جانب صعوبة البحث، وفي ظلّ وجود الكثير من الأدبيات السطحية المتحيزة في دراسة الظاهرة بشكل عام، بقيت مشكلة تعريف المفهوم ماثلة ومستمرة؛ إذ لا يوجد، حتى الآن، تعريف واحد للإرهاب يكتسب القبول العالمي، سواء لدى الأطراف الدولية، أو المؤسسات، أو الأفراد؛ لذلك استمرّ الجدل والخلاف لأسباب متعددة؛ دينية وسياسية، وأيديولوجية، وقانونية، وكذلك تاريخية مفاهيمية؛ فاستخدام المفهوم تغيّر وتبدّل عبر الزمن؛ حيث إنّ إرهاب «فترة الرعب» إبان الثورة الفرنسية (١٧٩٣)، يختلف -شكلاً ومضموناً- عن اتجاهات الإرهاب المعاصر، والتباسه مع مفاهيم فضفاضة أخرى؛ مثل الذئاب المنفردة، و«جرائم الكراهية» بشكلها المعاصر.

ويجادل باحثون مهمّون في هذه الظاهرة، مثل المؤرخ والسياسي الأمريكي ولتر لاكوير (Walter Laqueur)، بأنّه مهما كان تعريف مفهوم الإرهاب فإنه سيُرفض من بعضهم لأسباب أيدولوجية، وبأنّ الصفة الرئيسة للإرهاب؛ هي اشتماله على العنف (Violence)، والتهديد باستخدام هذا العنف.

«تعقّد الظواهر والتباسها، لا يعني النكوص عن دراستها وتحليلها بل تحطيمها بمعاول البحث والدراسة»

كما يجمع معظم الباحثين، ومعظم التعريفات الرسمية للإرهاب على وجود ثلاثة معايير مشتركة في تعريف الإرهاب، تساهم في عملية التفريق، و(ربّما) إزالة اللّبس، هي:

(١) العنف واستخدامه: يرى ولتر لاكوير أنّ هذا المعيار هو الوحيد، بشكل عامّ، الذي يحظى بإجماع الباحثين.

(٢) التأثير النفسي والخوف: لأنّ الهجمات الإرهابية تنفَّذ لهدف تعظيم هذا التأثير، وإطالة أمده قدر المستطاع، خاصة من خلال ضرب بعض الرموز الوطنية المهمة، سياسياً أو اقتصادياً، ولعلّ هجمات ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ ضدّ مركز التجارة العالميّ والبنتاغون، كانت مثالاً حيّاً عن ذلك.

(٣) الأهداف السياسية: إنّ التكتيك السياسيّ (Political Tactic) لدى الإرهابيين، ببساطة، هو ما يميز الإرهاب عن بقية الجرائم والأفعال (الحرب التقليدية، وحرب العصابات، وجرائم الكراهية، ...إلخ)، والفشل في استخدام هذا التكتيك يُعدّ، بالنسبة إلى الإرهابيين، أسوأ من موت الأبرياء، كالاستهداف المتعمد لغير المشاركين في المعارك.

مفاهيم تختلط بالإرهاب

بناءً على المعايير المذكورة أعلاه؛ تجدر الإشارة إلى أنّ الإرهاب يختلف عن مفاهيم أخرى، قد تبدو قريبة منه ومختلطة به، ومُلتبسة معه، حتى للمهتمين بالظاهرة وخبرائها، وأبرز هذه المفاهيم:

(١) الإرهاب وجرائم الكراهية (Hate Crimes): لا ترقى مهاجمة شخص بسبب كراهيّته، لأسباب تتعلق بقوميته ودينه، لفعل العمل الإرهابيّ؛ لأنّها لا تتضمن النية السياسية والنفسية التي تقف وراء العمل الإرهابي.

ونشير هنا إلى الجدل المعاصر والمحتدم اليوم في أمريكا، حول هذه المسألة، خاصة بعد حادثة إطلاق النار في معبد «شجرة الحياة» اليهودي؛ إذ وصف المحقّقون الحادثة بأنّها «جريمة كراهية وليست إرهاباً!»، وقد وقعت الحادثة في مدينة بتسبيرغ-بنسلفانيا، يوم الأربعاء ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠١٨، وأدّت إلى وفاة ١١ شخصاً وجرح آخرين وذلك على يد

«توجد وسائل كثيرة يمكن أن يستخدمها الفرد لتحقيق هدفه أهمها؛ الانتخابات والمسيرات والاحتجاجات السلمية لكنّ الإرهابيين لا يؤمنون بهذه الوسائل»

شخص متطرّف ومعادٍ للسامية واليهود والمهاجرين، يُدعى روبرت باورز.

(٢) الإرهاب والصراعات العسكرية المسلحة: قد تتشابه في الأهداف، وذلك حينما يكون الهدف هو إحداث «الصدمة» و«الرعب» عند العدو، لكنّ الاختلاف يكمن في أنّ الصراعات العسكرية المسلّحة شكل من أشكال الحرب التقليدية.

(٣) الإرهاب وحرب العصابات (Guerrilla Warfare): يكمن التشابه بينهما «في حجم المشاركين»؛ بمعنى أنّ مجموعات صغيرة نسبياً تسعى لتحقيق أهداف كبيرة، وذلك باستخدام العنف المنظم ضدّ أهداف عسكرية، ما يمكن اعتباره شكلاً من أشكال «الحرب التقليدية»، موجّهاً ضدّ القدرات العسكرية للخصم.

ومع ذلك؛ فإنّ حرب العصابات تقترب أيضاً من الحرب غير التقليدية، وذلك من ناحية اعتمادها تكتيك التخريب والتدمير، أو الإكراه والإجبار، فمن ناحية ما تقوم بدعم أطراف بطريقة سرّية ضدّ نظام سياسيّ معين، ومن ناحية الإكراه والقهر والتخويف (Coercive Context)، تسعى مجموعات حرب العصابات إلى زيادة شعور الدولة المعنية بالخوف، والخطر المحدق.

(٤) الإرهاب والمجرمون المختلون عقلياً (Mentally Ill Criminals):

تُجمع الدراسات المتخصصة على أنّ الإرهابيين، مقارنة بالأشخاص العاديين، لا يعانون عادة من أيّة مشكلات نفسية سريرية، أو مشكلات الاضطراب النفسيّ، بل على العكس؛ إنّ الخلايا الإرهابية تتطلب استعداداً نفسياً على درجة عالية من اليقظة، واستعداد نفسيّ وبدنيّ متوازن، كما تتطلّب القدرة على العمل السريّ، كذلك فإنّ المنظمات والشبكات الإرهابية تدأب وبشكل مستمر على مراقبة وفحص أعضائها؛ لأنّ وجود أيّ عضو غير مستقر أو مضطرب نفسياً، يمكن أن يعرّض أمنها وعملياتها للخطر.

(٥) الإرهاب والعمل الفرديّ (Lone Wolves): لا تسمح بعض الدّول والأجهزة الأمنية والجماعات السياسية في العالم، بإمكانية اعتبار «العمل الفردي» إرهاباً، أو أن يكون فاعله إرهابياً، فعلى سبيل المثال؛

«إن الإرهابيين رغم استخدامهم الجرائم التقليدية في نشاطاتهم فإنّ المهم ليس الجرائم بحدّ ذاتها بل النظرة إلى الجرائم باعتبارها وسيلة لتحقيق أهداف محددة»

يصرّ مكتب التحقيقات الفدرالية (FBI) على أنّ العمل حتى يكون إرهابياً، يجب أن تنفّذه جماعات متشابهة (Like-Minded)، لا أفراد يعملون وحدهم، وبالطبع؛ توجد إشكالية عميقة في مقاربة ظاهرة إرهاب الذئاب المنفردة، خاصّة موجة الإرهاب المعاصر بعد عام ٢٠١٤، الذي يمثّله تنظيم داعش، وهو ما يحتاج إلى بحث خاص قد نتطرّق إليه لاحقاً.

(٦) الإرهاب والجرائم التقليدية (Traditional Crime): يتضمّن المصطلحان اختلافات جوهرية؛ لأنّ المجرمين التقليديين يسعون لتحقيق أهداف شخصية: كالحصول على المال، والسلع المادية، أو القتل أو جرح ضحايا محددين، وهم ليسوا معنيين بكسب الرأي العام، على عكس الإرهابيين؛ الذين يسعون للحصول على دعم الرأي العام، وينظرون إلى فوائد العمل بحدّ ذاته.

كما أنّ معظم الإرهابيين يسعون إلى تغيير النظام، أو عناصر في هذا النظام، لكنّهم لا يرون أنفسهم إرهابيين؛ بل يجادلون بأنّ المجتمعات ورجال الأمن الذين يطاردونهم هم الإرهابيون.

وتجدر الإشارة هنا؛ إلى أنّ الإرهابيين رغم استخدامهم الجرائم التقليدية في نشاطاتهم، فإنّ المهم ليس الجرائم بحدّ ذاتها لتمييز العمل الإرهابي عن الجريمة التقليدية؛ بل النظرة إلى الجرائم باعتبارها وسيلة لتحقيق أهداف محددة، وهو ما يشكّل الفرق بينهما.

مثلاً: توجد في الدول الديمقراطية وسائل كثيرة يمكن أن يستخدمها الفرد (أو الجماعة) لتحقيق هدفه، ومن أهمها: الانتخابات، والمسيرات، والاجتماعات، والمظاهرات، والاحتجاجات السلمية، ووسائل الإعلام الحرّة، وغيرها من وسائل التعبير عن الرأي، لكنّ الإرهابيين لا يؤمنون بهذه الوسائل السلمية؛ وهذه إشكالية أخرى، لأنّهم يرون في العنف (Violence) وسيلة مناسبة لتحقيق أهدافهم.

إذاً، تبدو الحاجة ملحّة إلى إعادة النظر في مفهوم الإرهاب التقليدي وتعريفه، وتوسيعه ليشمل تعديل القوانين والتشريعات لتجريم ظواهر خطيرة جداً، مرشحة للزيادة والانتشار في العالم العربي، مثل: خطاب الكراهية، والتحريض

عـلى العنـف، الفعـليّ والرمـزيّ، خاصـة عـلى وسـائل التواصـل الاجتماعـي، وذلـك في ظـلّ انتشـار ظاهـرة الإرهـاب العالمـي، والتطـرف الديــني العنيــف، وخطــاب الكراهيــة، والتحريـض عـلى العنـف، المعولـم، خاصـة في العالــم العــربي والإســلامي.

أين تكمن مشكلة
دراسة الإرهاب المعاصر؟

ليس من السهل على الباحثين استعراض الأدبيات التي تدرس حقل الإرهاب؛ لأنه يتميز بتداخل كثير من حقول المعرفة مثل: علم الاجتماع والدين وعلم النفس والعلوم السياسية والاقتصاد والتكنولوجيا، الأمر الذي عقّد من دراسته، ثم زاد من هذا التعقيد قلة الدراسات المتخصصة بالظاهرة.

ولم تحظ دراسة الإرهاب، على أنّه حقل مستقل، باهتمام كبير في العالم إلا بعد هجمات ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١، التي أدت إلى ثورة في حركة البحث والكتابة والتأليف والترجمة والمراجعات حول هذه الظاهرة، حتى أنّ عدد الكتب التي صدرت عقب الهجمات بعقدٍ من الزمن يُقدر بأكثر من ١٧٤٢ كتاباً في الغرب.

لكن، وللأسف الشديد، معظم ما ينشر من كتب ودراسات اليوم يتمحور حول «الدولة» كطرفٍ فاعل، ويتناول

«أدت هجمات ١١ أيلول إلى ثورة في حركة البحث والكتابة والتأليف والترجمة والمراجعات حول ظاهرة الإرهاب»

في الأساس، بشكل مباشر أو غير مباشر، «مكافحة الإرهاب» وليس «الإرهاب» كظاهرة إنسانية كلّانية.

لقد أصبح الإرهاب ظاهرة عولمية، تتخطى الحدود الجغرافية والقومية والثقافات ولا تختص بمنطقة جغرافية أو قومية أو جنسية أو ديانة محددة، وينشط اليوم مستفيداً من فضاءات العولمة. ولأنه نوع من العنف السياسي يهدف لتحقيق أغراض وأهداف متعددة ومختلفة؛ فقد أصبح أداة من أدوات تنفيذ السياسة الداخلية والخارجية للدول والجماعات مستفيداً من منظومة واسعة من الأسباب والمحركات المختلفة والمتعددة، لكنه يزدهر في مناطق الأزمات والصراعات السياسية والحروب، وتقوم به «أطراف فاعلة من غير الدول» لتميزه عن إرهاب الدولة؛ إذ تشير إحصائيات «معهد الاقتصاد والسلام» في سيدني-أستراليا لعام ٢٠١٧ الى أنّ الدول التي تشهد صراعات عسكرية عنيفة تعرضت لخطر الإرهاب أكثر من غيرها، وأنّ الدول العربية التي تأثرت أكثر بموجات ما يسمى بـ«الربيع العربي» بعد ٢٠١١ تعرضت لعمليات إرهابية أكثر. وأنّ ٩٩٪ من مجموع قتلى العمليات الإرهابية، و٩٦٪ من مجموع العمليات الإرهابية عالمياً، حدثت في الدول التي تعاني من صراعات عسكرية، والدول التي تعاني من ارتفاع معدلات الإرهاب السياسي.

إنّ مشكلة دراسة الإرهاب المعاصر تكمن في حقيقة أنّ هناك فوضى مفاهيمية عميقة تتجلى في عملية الخلط بين الدراسة العلمّية للإرهاب؛ كحقلٍ مستقل لظاهرة اجتماعية إنسانية من جهة، وبين مكافحة الإرهاب وأساليبه المختلفة التي تركز على الجوانب الأمنية والعسكرية من جهة أخرى. وجُلّ ما يتحدث عنه اليوم في الدراسات والأبحاث وتروّجه وسائل الإعلام يندرج في إطار «مكافحة الإرهاب» وأساليبه المختلفة.

وإلى جانب صعوبة البحث، وفي ظل وجود الكثير من الأدبيات السطحية المتحيزة في دراسة الظاهرة بشكل عام، بقيت مشكلة تعريف المفهوم عقبة في وجه المهتمين بالظاهرة؛ إذ لا يوجد حتى الآن تعريف واحد للإرهاب اكتسب القبول العالميّ، سواء لدى الأطراف الدولية، أو المؤسسات، أو الأفراد. لذلك استمر الجدل والخلاف لأسباب متعددة منها: دينية وسياسية، وأيديولوجية، وكذلك تاريخية مفاهيمية، من حيث إنّ استخدام المفهوم تغير وتبدل عبر الزمن، فإرهاب «فترة الرعب» ١٧٩٠ إبان الثورة الفرنسية،

«إنّ أهمية تعريف الظاهرة ليس بهدف معرفة الفعل الإرهابيّ وتحديده فقط بل لمعرفة كيفية التعامل مع تبعات الظاهرة»

يختلف، شكلاً ومضموناً، عن اتجاهات الإرهاب المعاصر، وينظر إلى الإرهاب عادة من زاوية الكره والرفض له، بمعنى، غياب النظرة العلمّية في الدراسة، والإغراق بعيداً باتجاه الجانب الأخلاقي للظاهرة.

إنّ أهمية تعريف الظاهرة ليس بهدف معرفة الفعل الإرهابيّ وتحديده فقط، بل لمعرفة كيفية التعامل مع تبعات الظاهرة وكما يقول «توني ديفيز» فإنّ المعنى أصلاً هو «شكل من أشكال الهيمنة، غير متأصل في الكلمة (الإرهاب) بل منزوع منها في صراع لا ينتهي بين التعريفات». وهذا ما يستدعي الإشارة وإعادة التذكير بأنّ التعريفات الغربية، والأمريكية، تنظر إلى الإرهاب وتعرّفه كأسلوب من أساليب الحرب التقليدية، أو حرب العصابات، أو المتمردين.

لكن معظم الباحثين في أدبيات الإرهاب العالمي يؤكدون بأنّ الإرهاب هو شكل من أشكال العنف السياسي، ويعود ذلك إلى الجذور التاريخية للمفهوم، والتي تعود إلى فترة الرعب الذي رافق الثورة الفرنسية (١٧٩٣-١٧٩٥) كما أنه أسلوب من أساليب الصراع، ويمكن أن يشكل إستراتيجية خاصة للقائمين به.

وفي نفس الوقت، يشير الباحثون البارزون مثل؛ المؤرخ والمنظر الأمريكي المعروف في أدبيات الإرهاب والعنف السياسي، ولتر زئيف لاكوير، إلى أنه مهما كان تعريف الباحثين للمفهوم فإنّه سيُرفض من بعضهم لأسباب أيدولوجية، وبأنّ الصفة الرئيسة للإرهاب هي اشتماله على العنف، والتهديد باستخدام هذا العنف.

مناظرات متضاربة

ما تزال النظرية الواقعية هي المسيطرة في حقل دراسة الإرهاب حالياً؛ وأقصد كحقل دراسي بحثي مدرسي ومعرفي، وأيضاً كفعل عملياتي أداتي يتجلى في تكتيكات وأساليب مكافحة الإرهاب الخشنة، والتي تستند في الأساس إلى إيمان النظرية الواقعية العميق بكل فروعها بأنّ الدولة هي وحدة التحليل الرئيسة في السياسة الدولية رغم التغيرات العميقة التي أحدثتها سيرورة العولمة؛ من تغير وحفر في بنية وسلوك الدول اليوم، وفي تركيز النظرية على دراسة إرهاب «الأطراف الفاعلة من غير الدول» كالجماعات والمنظمات، في مقابل إهمال دراسة «إرهاب الدولة»؛ أي الإرهاب الذي تمارسه الدول سواء ضد غيرها من الدول، أو ضد الجماعات والمنظمات أو

«لا يوجد حتى الآن تعريف واحد للإرهاب اكتسب القبول العالمي سواء لدى الأطراف الدولية أو المؤسسات أو الأفراد»

حتى الأفراد. وتركيز الباحثين والأكاديميين المرتبطين بها على الدراسات الانطباعية وقلة الدراسات المعتمدة على المصادر الأولية والدراسات الكمية، ثم الارتباط العضوي لهذه الدراسات والأبحاث بالدولة لأنها القادرة على تمويل الدراسات والأبحاث.

في منافسة «النظرية الواقعية» نشطت «النظرية النقدية» والدراسات النقدية في دراسة الإرهاب (Critical terrorism studies CTS) إثر هجمات ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١، وإعلان الحرب على الإرهاب مستندة إلى تراث ماركسي تقليدي من مدرسة «فرانكفورت» والدراسات الأمنية النقدية في جامعة «أبيريستوث ويلز» في محاولة لتشييد مقاربة مختلفة لدراسة الإرهاب كبناءٍ اجتماعي وتعرية مفهوم الإرهاب كشعارٍ يطبق في ممارسات عنيفة محددة من خلال مستويات مختلفة من العمليات السياسية والقانونية والأكاديمية، والتأكيد في المقابل أنّ المعاني يتم تطويرها بالتنسيق مع الآخرين وليس بشكل منفصل داخل كل فرد.

من هنا تركز هذه المدرسة على ضرورة طرح أسئلة «كيف» و«لماذا» تحدث العمليات الإرهابية؟ وهل حقاً أنّ الإرهابيين يكرهون الغرب لحريته؟ أم أنّ هناك أسباباً ودوافع سياسية أخرى؟ والتأكيد على أنّ الإرهاب «أنطولوجيا» حقيقة اجتماعية وليس رغبة إنسانيه متوحشة. ومن أشهر منظريها اليوم ريتشارد جاكسون، كين بوث، وريتشارد ووين جونز.

شخصياً؛ لا أظن بأنّ النظرية النقدية قادرة على منافسة الواقعية، على الأقل حتى الآن، لأسباب كثيرة يطول شرحها. لكن المفيد فيه أنّها وسّعت من مداركنا وأدواتنا التحليلية أبستمولوجياً وأنطولوجياً في فهم الظاهرة خاصة دراسة الإرهاب بشكلٍ معرفي، علمي وكمي، كحقل دراسي مستقل، وليس فقط كإجراءات وعملياتية تكتيكية جامدة كما تتجلى في «مكافحة الإرهاب» اليوم.

في النهاية ؛ ينبغي التأكيد على أنّه ليس هناك مجتمع معاصر محصن ضد الإرهاب، لكن مكافحته لا تتم فقط عن طريق الأساليب العسكرية والإجراءات الأمنية والمقاربات الخشنة؛ بل عن طريق الدمج المتزن والذكي بين المقاربات الخشنة والناعمة معاً، والتعاون والتشارك بين كافة

«تنظر التعريفات الغربية والأمريكية إلى الإرهاب كأسلوب من أساليب الحرب التقليدية أو حرب العصابات أو المتمردين»

الأطـراف الفاعلـة في المجتمـع، وتعميـق ثقافة الحـوار والتواصـل والتفاهـم، وتقبـل الآخـر، والاهتمـام بقطاعـات النسـاء والشـباب في المـدارس والجامعـات الذيـن يشـكلون اليـوم العمـود الفقـري لكافـة الجماعـات الإرهابيـة في العالـم. وتوجيـه الحكومـات والـدول ومؤسسـات المجتمـع المـدني، وعـلى رأسـها مراكـز البحـث والدراسـات، نحـو الاهتمـام بالدراسـات النظريـة والأكاديميـة الـتي تبحـث الظاهـرة مـن كافـة جوانبهـا المعرفيـة الكمّيـة والكيفيـة. وعـدم الاقتصـار عـلى دراسـة «مكافحـة الإرهـاب» وأسـاليبه فقـط.

ازدواج المعايير.. كيف يفهم الغرب ظاهرة الإرهاب؟

لا شيء في الكون مزدوج، والطبيعة والحياة قائمة على هذا الازدواج، ولقد خطا الإنسان الأول خطوته الأولى في هذه الحياة يتخبط بين هذين الخطين السرمديين.

هذا الازدواج شق طريقه عبر التاريخ والتطور البشري ليستقر في كافة البنى الفكرية والدينّية والفلسفية في العالم، متجلياً على سبيل المثال في: الليل والنهار، الأسود والأبيض، الخير والشر، الجنة والنار، نحن وهم، الحرب والسلام، التطرف والاعتدال.. والقائمة تطول.

الملاحظ أنّ نتيجة التراكم المعرفي

«ضمن قائمة الازدواجات الناشئة في عالم اليوم مفهوم الإرهاب مقابل جريمة الكراهية»

للبشرية والتسارع الحاصل في التكنولوجيا؛ أصبحنا نعاني من التشويش حول الحدود التي تقف عندها «الازدواجات التقليدية» القارّة في وعينا الجمعي كبشر؛ فكلما زاد التطور البشري الذي تجره قاطرة التسارع التكنولوجي قلّت أو تلاشت أو تغيرت الحدود بين هذه الازدواجات كما استقرت في أفكارنا السابقة. وهنا؛ تبقى الإشكالية ضمن حدود مجادلات ونقاشات الفلسفة والأفكار الكبرى، وليس له من ساحة أفضل من صراع الحضارات.

المشكلة هي في «الازدوجات الناشئة» أو الفرعية التي أرى أنّه تم تصنيعها حديثاً من خلال تسارع التطور التكنولوجي، وزيادة المعارف البشرية وتعقد المجتمع الدولي وصراعه المحموم مع سيرورة العولمة، ولذلك يمكن أن أصف «الازدواجات الناشئة» بأنّها من مخرجات سيرورة العولمة المعاصرة، وأهمها عندي مفاهيم التطرف، التطرف العنيف، جرائم الكراهية «الإرهاب»، الإرهاب الدولي، الإرهاب العالمي، الإرهاب المحلي، ومكافحة الإرهاب.

ومن ضمن قائمة الازدوجات الناشئة أريد التركيز في هذا المقال على مفهوم الإرهاب مقابل جريمة الكراهية كما تستخدم في الأدبيات الأمريكية لدراسة الإرهاب المحلي المعاصر.

ما الإرهاب؟

هناك اتفاق بين المؤرخين وعلماء الاجتماع والسياسة على أنّ الإرهاب ظاهرة ضاربة في التاريخ الإنساني، ومرافقة للمقدس في كافة الحضارات الإنسانية والديانات، مثلما أنّ هناك اتفاقاً على أنّ الإرهاب المعاصر تفجر في قلب الثورة الفرنسية وعلى هوامشها الفكرية والسياسية التي ولّدت ما يُطلق عليه في أدبيات العنف السياسي والارهاب «فترة الرعب» التي بدأت خلال الثورة الفرنسية، من شهر تموز (يوليو) عام ١٧٩٣ واستمرت لمدة ثلاث سنوات تقريباً، وتزعمها القائد السياسي الثوري مكسيمليان روبسبير الذي ذهب ضحيتها هو نفسه في النهاية!

ومنذ هذا التاريخ يمكن للمتابع أن يلاحظ بسهولة كيف كان مفهوم الإرهاب والإرهابي يتطور عبر الزمن؛ سواء من حيث التوالد اللغوي أو الفعل التواصلي أو التأويلي، أولاً من اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر ميلادي، ثم إلى الفرنسية حينما استخدمها لأول مرة العام ١٧٩٤ الفيلسوف

«معظم العمليات التي ارتكبها عرب ومسلمون تصنف مباشرة إرهاباً إسلامياً بخلاف ما يرتكبه اليمين المتطرف»

الفرنسي فرنسيس نويل- بابيوف الذي تم إعدامه بتهمة التآمر على الثورة لوصفه نظام روبسبير بالدكتاتورية، ثم إلى اللغة الإنجليزية حينما استخدمها الفيلسوف والسياسي الإيرلندي أدموند بيرك في كانون الأول (ديسمبر) ١٧٩٥، لوصف أعمال الحكومة الفرنسية الحاكمة آنذاك.

وهكذا بدأت متوالية التوليد والتأويلات للمفهوم، بداية من التعريف الى الأصول التاريخية والأسباب والأشكال والأنواع، حتى تجاوزت التعريفات المعروفة للمفهوم أكثر من ٢٠٠ تعريف ليس بينها تعريف واحد متفق عليه، وهذا ما أكده البرفسور البريطاني ريتشارد جاكسون مُنظر الدراسات النقدية لظاهرة الإرهاب في كتابه القيّم «الإرهاب: مقدمة نقدية» عندما قال «إنّ الإرهاب أصبح في كل مكان في القرن الواحد والعشرين، والخبر الأول في وسائل الإعلام، ويشغل الدول والحكومات، من الأمم المتحدة إلى الاتحاد الأوروبي، إلى حلف الناتو، إلى الأجهزة الأمنية والشرطة في العالم».

كل هذا يحدث على الرغم من أنّ ظاهرة الإرهاب المعاصر تعود الى مئات السنين، إلى حقبة الثورة الفرنسية، كما أسلفنا، إلا أنّها بقيت حتى السبعينيات من القرن العشرين بعيدة عن الأضواء والاهتمام؛ إذ لم يكن هناك أفلام أو مسلسلات أو روايات أو كتب أو باحثون مهتمون بالإرهاب مقارنة بما نشهده اليوم.

كذلك فإنّ صعوبة الكتابة والبحث في ظاهرة الإرهاب مازالت تفرض نفسها لسببين: الأول؛ قلة الدراسات والنصوص المتوفرة للطلاب والدارسين مقارنة بالحقول الأخرى مثل: العلاقات الدولية، علم الجريمة، الدراسات الأمنية. والثاني؛ أنّ الإرهاب ليس حقلاً أكاديمياً مجرداً؛ لأنه -كما سبق أن أشرت- هو حقل يتميز بتداخل كثير من حقول المعرفة.

المعايير المزدوجة

ساهمت سيرورة العولمة في تحطيم «الحكمة التقليدية» في كل جوانب الحياة المعاصرة، وتضخيم وانتشار المعايير المزدوجة، وإنتاج الازدواجات القاتلة؛ لأنّها سطّحت المعرفة الإنسانية، ثم سهّلت طرق الحصول عليها ومشاركتها والتعبير عنها بأقل قدر من الرقابة الرسمية، حتى أصبح الفرد المجرد المزوّد بهاتفٍ نقال محطة بث متنقلة، وأصبح «الأصدقاء» و«المجموعات» على

«ظاهرة الإرهاب المعاصر تعود إلى مئات السنين وتحديداً إلى حقبة الثورة الفرنسية»

وسائل التواصل الاجتماعي والإنترنت بديلاً للعائلة والقبيلة وجماعات ضغط اللوبيات والأحزاب والنقابات. وهي في كل ذلك تحفر عميقاً في البنية القديمة للدولة والمجتمع والمؤسسات كما تعارفنا عليها، في نفس الوقت الذي تساهم فيه في توليد الفلسفات والمفاهيم والأفكار والمعايير الجديدة، وزيادة حجم المخاطر والخوف ونشر التطرف والإرهاب.

لقد أصبح الناس في الحقبة المعاصرة من سيرورة العولمة يقتلون كل اليوم في الشوارع والساحات والأسواق والمدارس والجامعات وأماكن العبادة؛ ليس بسبب ما يفعلون، أو يمثّلون؛ بل لأنهم كانوا غالباً في المكان والزمان غير المناسبين، في وضع لم يسبق له مثيل في التاريخ الإنساني، وأظنه أخطر تجلٍّ لسيرورة العولمة المعاصرة.

المشكلة التي تواجهنا كبشرٍ على هذا الكوكب اليوم؛ هي أنّه على الرغم من فداحة الشر المجسّد الذي نلمسه ونشاهده ونسمعه عبر وسائل وآليات العولمة التكنولوجية حول كل هذه الحيوات التي تزهق بسرعة وبرود وأحزان مؤقتة أو متضامنة أحياناً، إلا أنّنا نختلف في توصيف هذا الشر المجسد؛ هل ينطبق عليه تعريف الإرهاب، أم هو جريمة كراهية؟ وهل هو إرهاب دولي أم محلي؟ وأيهما أهم: إرهاب الجماعات والمنظمات الاسلاموية الناشطة حالياً مثل: داعش والقاعدة وبوكو حرام وطالبان، أم إرهاب جماعات اليمين المتطرف في أمريكا وأوروبا؟

الملاحظ على الجهتين (الجماعات والمنظمات الإسلاموية/ جماعات اليمين المتطرف) أنّ «نظرية المؤامرة الكونية» هي المسيطرة على تفكير هذه الجماعات ومؤيديها في العالم؛ فالجماعات الإسلاموية ترى أنّ هناك مؤامرة عالمية من الغرب وإسرائيل لتدمير الإسلام، وجماعات اليمين المتطرف ترى العكس، وأنّ هناك مؤامرة من المسلمين واليهود وغير البيض على تدمير تفوّق العرق الأبيض وحضارته العريقة.

لقد أسهمت آليات العولمة التكنولوجية منذ العقد الماضي في تعميق هذه الانطباعات والنظريات السوداوية؛ حيث تم تصدير وتصوير الهجمات الإرهابية التي شنّها تنظيم القاعدة منذ العام ٢٠٠١، وهجمات تنظيم داعش منذ العام ٢٠١٤ داخل المدن الأوروبية وأمريكا على أنّها هجوم على الحضارة الغربية

«المفارقة أنّ كلا الجماعات الإسلامية واليمين المتطرف تسيطر عليهما نظرية المؤامرة الكونية»

البيضاء، وكمحركات لرد فعل عنيف من قبل جماعات اليمين المتطرف أو ما يُطلق عليه الآن في أدبيات الإرهاب «اليمين البديل» اعتماداً على الازدواجات الناشئة مثل؛ محور «الخير والشر»، و«نحن وهم» التي اتخذت شكلاً مؤسسياً بعد هجمات ١١ أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١ خلال رئاسة جورج بوش الابن، والتي انبعثت مرة أخرى وبقوة بوجود دونالد ترامب بهدف الرد على هجوم «الآخرين» على هذه الحضارة.

ويلاحظ أنّ «الآخرين» توسعت هنا لتشمل ليس فقط الغرب والمسلمين واليهود (الساميين)، بل كافة الأعراق والأجناس غير البيضاء، وضمن هذه الأجواء برزت «المعايير المزدوجة» ومشكلة تعريف الإرهاب، والنظرة الى الإرهاب خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وتحديداً بعد سلسلة عمليات القتل والاستهداف التي قام بها أشخاص من اليمين المتطرف ضد اليهود والمسلمين والأقليات؛ إذ تشير إحصائيات «رابطة عدم التمييز» الأمريكية الى أنّ اليمين المتطرف كان مسؤولاً أو متهماً بكل عمليات القتل الإيديولوجي وبنسبة ٥٩٪ من المجموع الكلي للعمليات العام ٢٠١٧م.

لكن على الرغم من ذلك؛ قلل الرئيس ترامب من خطورتهم مدعياً «أنهم أقلية من الناس لديهم مشاكل جدية ولا يشكلون تهديداً عالمياً»، وتم تصنيف معظم عملياتهم على أنّها «جرائم كراهية» وليست إرهاباً!

على خلفية هذه العمليات الإشكالية أثيرت مؤخراً في الولايات المتحدة نقاشات حادة وجلسات استماع في الكونغرس، من أهمها جلسة الاستماع التي جرت بتاريخ ١٧ أيار (مايو) ٢٠١٩ وشاركت فيها أصغر نائب (٢٩ عاماً) في الكونغرس الأمريكي عن الحزب الديمقراطي والمعارضة القوية لترامب، ألكساندريا أوكاسيو-كورتيز، مع جورج سليم مدير وحدة «مكافحة التطرف العنيف» في إدارة باراك أوباما التي قامت إدارة دونالد ترامب بإلغائها، لمحاولة البت في إشكالية المعايير المزدوجة في تعريف «الإرهاب» و«جريمة الكراهية»؛ حيث يلاحظ أنّ معظم العمليات التي ارتكبها عرب ومسلمون تصنف مباشرة وبسرعة على أنّها «إرهاب إسلامي»، بينما معظم العمليات العنيفة التي قام بها أعضاء من اليمين المتطرف وتفوق الأمة البيضاء لم تصنف إرهابية بل جرائم كراهية، مع أن تعريف «مكتب التحقيقات الفيدرالية» FBI)

للإرهـاب ينطبـق عليهـا!

صحيـح أنّ للإرهـاب تاريخـاً طويـلاً في المجتمـع الإنسـاني؛ لكنـه تحوّل بعـد هجمات ١١ أيلـول (سـبتمبر) ٢٠٠١ ضـد أمريـكا، إلى قضية تحظـى باهتمـام عالمـي، أمـا الحـرب عـلى الإرهـاب الـتي تبعـت ذلـك فقـد أثّـرت عـلى مختلـف القضايـا لحياتنـا المعـاصرة، ومـا زالـت تؤثـر علينـا حـتى الآن، خاصـة وأنّهـا أصبحـت منجمـاً لإنتـاج الازدوجـات الناشـئة وتوليـد المعايـير المزدوجـة، ولذلـك فـإنّ الفهـم الدقيـق للإرهـاب أصبـح أكـثر أهميـة مـن أي وقـت مـضى.

الأصولية الإسلاموية المتطرفة والفكر التكفيري الإرهابي: محاولة للفهم

يتجلّى المقدس الديني في حياتنا المعاصرة، بنفس القدر الذي كان يتجلّى فيه للبشر منذ بدأ الخليقة. وكان المقدس يتغلل ويتشرب في عقول وأحاسيس البشر ثم يتجلى في أعمالهم وتصرفاتهم ونظرتهم للكون والخلق على مدار التاريخ. ولقد ظهر هذا التجلّي في مجالات مختلفة من الرسم والتصوير والنحت والشعر والأساطير والقصص الملحمّية (الساغا)، ومع تطور الفكر؛ عبر سيرورة التاريخ الطويلة اندمج المقدس في بنية الخطاب السياسي (الرسمي).

ومنذ زمن موغل في القدم البشري أصبح المقدس أهم مكونات خطاب السلطة وفي كافة الحضارات (حضارة ما بين النهرين، الفرعونية، الهند، الصين، الإغريقية، اليونانية) . إن الآلهة، وأنصاف الآلهة والأرباب، والسحرة والشامانات، والأنبياء والرسل وصولاً حتى الأباطرة

«مع تطور الفكر؛ عبر سيرورة التاريخ الطويلة اندمج المقدس في بنية الخطاب السياسي (الرسمي)»

والملوك والقادة العسكريين، اعتمدوا على الإرهاب الديني المقدس للحصول على: الرعب، الخوف، الطاعة؛ وفي الوقت نفسه الترغيب والأمل بالخلاص والفردوس أو الجنة للحصول في النهاية على القبول والخضوع، والسلطة القهرّية التي تُمكّن من إحكام السيطرة على بقية البشر. ليتشكل أول انعطاف تاريخي لانغماس الفضاء الديني في الفضاء السياسي، وتشكيل الدولة القومية الحديثة.

وعلى مدار التاريخ والتطور البشري تعرض هذا المقدس للخلخلة والتحليل والنقد وبمستوياتٍ مختلفة؛ حيث يمكن القول - للاختصار- إنّ أهم مثال هو الإصلاح الديني الأوروبي (فصل الدين عن الدولة) وتجليات العلمانيّة وظهور الدولة القومية الأوروبية بعد معاهدة (وستفاليا) ١٦٤٨م .

إنّ عملية نقد وتفكيك ملف التطرف الديني والإرهاب يمكن أن يكون المدخل للإصلاح الديني العام؛ لأنه الملف الذي أحرج وكشف عورة إيديولوجيا «الإسلام السياسي»، وكثير من أشكال التدين، وخاصة التديّن الشعبّي الذي يقف مشدوهاً ومندهشاً لحجم التطرف والترويع والتوحش الذي يرتكب تحت راية السلام الذي يؤمن به، وجعل من قيم التسامح والرحمة مقولات بلا معنى، أمام ما يشاهده العالم عبر وسائل الإعلام من قتل وتدمير وبث روح الكراهية من قبل أطراف فاعلة من الدول، وأطراف أخرى من غير الدول مثل؛ الجماعات الإرهابية المعاصرة سواء الإسلاموية، وعلى رأسها تنظيم داعش، أو جماعات ومنظمات اليمين الديني والقومي المتطرف في أوروبا وأمريكا، وأماكن أخرى في آسيا اليوم ضد الآخر وكل ما هو مختلف.

قبل البدء بمحاولة تفكيك هذا الملف المُلغم أشير إلى أنّ «العالم الإسلامي» في معظمه تقريباً يعيش ما يسمّى بحالة «إنكار الذات» ولا يريد أن يعترف بمشكلة أو مرض التطرف وينصرف في حمى البحث عن الأعراض ومعالجة أعراض المرض الحقيقي متمثلاً بالفكر و(الأيديولوجيا) القادرة على إنتاج هذه المتوالية من (فيروسات) المرض، وأرى أنّه لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار عدداً من الأفكار الأولية كمدخل لمحاولة الفهم، وهذه الأفكار هي:

الأولى: ضرورة التركيز على أهمية الفكر والإيمان المطلق بالفكرة والاستماته في الدفاع عنها عن وعي وإدراك وتخطيط

«ستكون أجندة التطرف والإرهاب حاضرة طالما بقيت المنطقة في جدل عقيم»

وفهم تام واضح وعميق.

الثانية: أهمية عدم الاستخفاف والاستهانة والحط من شأن حملة هذا الفكر؛ ثم محاولة شيطنة أصحابه فقط؛ لأن هذا لا يضيرهم ولا يضرهم.

الثالثة: أهمية التأكيد على الاحتمال الكبير بفشل الحوار مع أصحاب هذا الفكر؛ وفي النهاية لن يفضي إلا إلى نتائج بسيطة في مقابل فوائد أكبر لأصحاب هذا الفكر؛ أقلها إثبات الوجود والتوسع بالتجنيد والانتشار، حتى خارج حدود الفضاء الإسلامي أو ما يطلق عليه العالم الإسلامي.

الرابعة: لمحاربة هذا الفكر والقضاء عليه لا بد من وجود مقاربة موازية له وليس مواجهة له أو معارضة أو منافسة له، (لكنها تغرف من نفس البئر)؛ مقاربة جادة تقوم على بناء منظومة واسعة وعميقة ومقنعة وذات جدوى من المصالح والعلاقات والبرامج الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تعبر عن مصالح الناس وتدفعهم للدفاع عنها وحمايتها بدل تشتيت الجهد في منافسات طابعها اللعبة الصفرية، ثم خسارة كافة أطراف اللعبة.

الخامسة: أهمية الوعي بأنّ هناك قطاعاً طفيلياً واسعاً وعريضاً يتكسب من وراء الرطانة الواسعة حول محاربة التطرف الديني أو مكافحة الإرهاب، يشمل: أطرافاً فاعلة من غير الدول، أهمها:

الخبراء والأكاديميون والشيوخ والوعّاظ والمحللون والكتاب والمنظمات غير الحكومية ومراكز البحث والدراسات والمرتزقة وشركات الحماية والمجمّع الصناعي وبالذات شركات تصنيع الأسلحة والذخائر وتجارة المخدرات، وصولاً إلى الأطراف الفاعلة من الدول، وهي القادرة على بناء التحالفات الدولية وتحريك الجيوش والطائرات والصواريخ وتجنيد العملاء. وهذا القطاع الطفيلي الواسع له مصالح ببقاء هذا الوحش طليقاً؛ لأن وجوده مرتبط عضوياً ومصالحياً بهذا القطاع.

أتوقع على المستوى الشخصي - أرجو أن أكون مخطأ- أن يظلّ المشهد السياسي العربي والإسلامي يراوح مكانه على المدين؛ المتوسط والطويل؛ وستكون أجندة التطرف والإرهاب حاضرة في ثنايا هذا المشهد طالما بقيت المنطقة في جدل عقيم، يختصر في فسطاطين مراوغين وملتبسين جداً هما: المقاومة والجهاد من جهة، والإرهاب من جهة ثانية ومحاولة

التفريــق بينهــا، وبــين هذيــن الفســطاطين يتشـكل المشـهد السـياسي العـربي الراهن، وفي ضـوء تفاعلهمـا وتطورهمـا يتشـكل مسـتقبله.

وهـذا إن دلّ عـلى شيء فإنمـا يـدلّ عـلى أنّ البديـل أمـام البشريـة لمواجهـة التطـرف والإرهـاب ليس صراع الحضـارات والثقافات أو الهويـات؛ بـل برنامـج عمـل إنسـاني مـن أجـل الحضـارة الإنسـانية، وبأننـا في هـذا العـصر أكــثر ملاءمــة لاختيــار سراطــات مســتقيمة متعـددة ومختلفـة، حسـب توصيـف المفكـر الإيـراني عبـد الكريـم سروش (حسـين حاجـي فــرج الدبــاغ)؛ ولتجــاوز (الإيديولوجيــات) والنمــاذج المعرفّيــة الجامــدة، وتأســيس نمـاذج أكـثر سـماحة وإقناعـاً وثـراءً للبشــرية جمعــاء دون إكراهــات أو تميــيز في الديــن والجنــس والعــرق واللغــة.

كيف يهدد التطرف والإرهاب القيم والسلم الاجتماعي؟

إنّ الكتابة حول أثر التطرف العنيف والإرهاب - بشكلٍ عام - على القيم والسلم الاجتماعي في أي دولة يمكن أن تكون واحدة من أهم التحديات التي يواجهها أي باحث في الإرهاب؛ لأنه يتطلب غربلة وفحص الكثير من البيانات والأجزاء المعقدة والمتضاربة من الأدلة.

ولذلك فإنّ البحث عن فهم عالمي مشترك، والموضوعية وعدم التحيز في عرض البيانات خلال العملية المضنية للبحث عن جوهر الإرهاب تبدو «مهمة مستحيلة» للباحث السياسي.

ومن المهم التأكيد بأنه ليس الهدف هنا السرد والتأريخ فقط؛ بل لتتبع جينولوجيا ظاهرة التطرف والإرهاب في الوطن العربي من خلال كافة المحطات التاريخية، وفحص فرضية أنّ التطرف العنيف والإرهاب خلال الـ ١٠٠ عام الماضية

«إن البحث عن فهم عالمي مشترك، والموضوعية وعدم التحيز في عرض البيانات خلال العملية المضنية للبحث عن جوهر الإرهاب تبدو «مهمة مستحيلة» للباحث السياسي»

قد أثر على القيم والسلم الاجتماعي والأهلي.

وقد ظهرت «أحداث» خطيرة تنبئ عن مقدار لا يستهان به من التطرف العنيف وخطاب الكراهية والتنمر وعدم قبول الآخر، خاصة بين المسيحيين، والذي ينتشر ويتوسع باستمرار مستفيداً من وسائل التواصل الاجتماعي ويتزعمه رموز السلفية الجهادية، وقد يتحول إلى خطرٍ شديد إذا لم يتم الانتباه له وكبحه قبل أن يستفحل أكثر ويُفرخ إرهاباً محلياً لا يمكن السيطرة عليه إلا بخسائر وتضحيات كبيرة.

أول ما يجب أن نحاول تّذكره هو الأحداث والتغيرات والتفاعلات المعقدة «بين أحداث تبدو بعيدة ومخاوف قريبة بين تواريخ قديمة واستفزازات جديدة، بين حدود أعيدت كتابتها من جديد وأوامر غير مكتوبة» ساهمت في تكوين العالم العربي المعاصر ودخوله «جغرافية الغضب» التي تعتبر الحصيلة المكانية لكل التفاعلات أعلاه، أما وقود هذه الجغرافيا الغاضبة فهو سيرورة العولمة التكنولوجية «وسائل الإعلام الجماهيري، والإنترنت، ووسائل التواصل الاجتماعي الحديثة والخطب السياسية والتقارير والوثائق التحريضية. وشرارتها دائماً حالة الارتياب الاجتماعي حيال الآخر، العدو». والتي تتجلى في التطرف العنيف و العمليات الإرهابية.

يقع العالم العربي اليوم في قلب «جغرافية الغضب»؛ ألا وهي منطقة الشرق الأوسط المنطقة «الأكثر اختراقاً بين الأنظمة الدولية السياسية». فمنذ حطت حملة نابليون على أرض مصر عام ١٧٨٩م، باتت المنطقة تنافس بين القوى العظمى. فالأهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة الجغرافية تكمن في أنها البوابة التي تربط أوروبا بالشرق الأقصى بسهولة ويسر ساهم في سهولة تسرب الغضب بين أطرافها.

وقد عزز اكتشاف النفط في بداية القرن العشرين من أهمية المنطقة للاقتصاد العالمي. وبعد الحرب الكونية الأولى أصبحت المنطقة من أعظم مسارح الحرب الباردة، وكانت تتورط رغماً عنها في النزاعات بين القوى العظمى المتنافسة

«الأهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة الجغرافية تكمن في أنها البوابة التي تربط أوروبا بالشرق الأقصى بسهولة ويسر ساهم في سهولة تسرب الغضب بين أطرافها»

على السلطة والهيبة والتأثير السياسي».

وحتى تتجلى جغرافية الغضب بأوضح صورها؛ كانت تلتقي في المنطقة «المصادر الخارجية للنزاع والعنف بالمصادر الداخلية فتنتج دوامة من الأزمات والعنف والحروب والإرهاب. وما يزال الصراع بين إسرائيل والعرب واحداً من عوامل زعزعة الاستقرار في هذه المنطقة خاصة للأردن بحكم التلاحم الشعبي والقرب الجغرافي. أما جوهر الصراع فهو القضية الفلسطينية» .

لا يمكن لنا أن نحمي أنفسنا من الإرهاب إلا إذا تعلمنا كبشر العيش معاً. ولهذا العيش حتى يتحقق وينجز مصفوفة طويلة من القيم التي تفضي إلى التقدم. ولا بد لنا كبشر من التأكيد عليها لأن التطرف العنيف المفضي إلى الإرهاب إنما يتسلل من خلالها إلى عمق مجتمعاتنا.

وهذه القيم هي: الانتماء والمشاركة التي تتصل بالمنظومة الثقافية والأخلاقية في محاور قيم العمل والإنتاج، والتمدن، وأساليب الحياة والسلوك الاجتماعي، والمسؤولية الاجتماعية وتعظيم دور مؤسسات المجتمع المدني في مجالات العمل التطوعي والخيري بعد أن تخلت الدولة عن الكثير من وظائفها. والاعتدال كقيمة مشتقة من العدل والصواب والاستقامة وكل ما هو حسن وجميل، وتقليل غلواء التطرف والعنف. ولقد جرت العادة أن يستخدم مفهوم التسامح بين الأديان، والواقع أنّ ما يلائم العلاقة بين البشر في تنوعهم واختلافهم الديني والثقافي والعرقي هو العيش معاً.

لذلك تمثل قيم الاعتدال، والتسامح؛ رغم النقد الذي وجهه (جاك دريدا) لهذا المفهوم مقترحاً مفهوم الضيافة بدلاً عنه؛ هدفاً للجماعات والدول لتكون قادرة على العيش معاً بسلام في ظل الاختلاف والتنوع.

من أهم أولوياتنا اليوم بناء ثقافة العفو والتعاون والتسامح بمختلف أشكاله، ويرتبط بذلك ضرورة التأكيد على قيم التفاعل والتواصل الاجتماعي

ويبدو واضحاً اليوم، في خضم ما نشهده من عنف مجتمعي، وشجارات، وسلوك اجتماعي متوتر، واحتقان سياسي سواء في الشارع أو حتى في أروقة السياسيين

«بعد الحرب الكونية الأولى أصبحت المنطقة من أعظم مسارح الحرب الباردة، وكانت تتورط رغماً عنها في النزاعات بين القوى العظمى المتنافسة على السلطة والهيبة والتأثير السياسي»

بسبب الظروف الاقتصادية والاجتماعية الضاغطة خصوصاً بسبب جائحة كورونا، أن من أهم أولوياتنا بناء ثقافة العفو والتعاون والتسامح بمختلف أشكاله، ويرتبط بذلك ضرورة التأكيد على قيم التفاعل والتواصل الاجتماعي.

فالتواصل والتفاعل الاجتماعي أساس الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية للأمم من خلال: العائلة والقرابة والجمعيات التطوعية خارج صلات القرابة كالمدارس والأندية والنقابات. ويرتبط بعملية التواصل القدرة على الاستماع والحوار بين البشر من خلال تنمية مفاهيم ومهارات الإصغاء والاستماع وفهم الذات، والآخر المختلف.

تفكيك الخطاب المتطرف المؤدي إلى الإرهاب

الخطاب هو تعميم لمفهوم المحادثة إلى أي شكل من أشكال الاتصال، وهو موضوع رئيسي في النظرية الاجتماعية، حيث يمتد في مجالات مثل علم الاجتماع، والسياسة، والإنثروبولوجيا والفلسفة، والأديان المقارنة.

تنظر هذه المجالات إلى الخطاب على أنّه نظام للفكر أو المعرفة أو التواصل الذي يبني تجربتنا في العالم، وبما أنّ السيطرة على الخطاب ترقى إلى السيطرة على كيفية النظر إلى العالم، فإنّ النظرية الاجتماعية غالباً ما تدرس الخطاب باعتباره نافذة على السلطة، ومن هنا تأتي أهمية الخطاب السياسي.

في العلوم الإنسانية والاجتماعية العامة يصف الخطاب طريقة تفكير رسمية يمكن التعبير عنها من خلال اللغة، والخطاب هو حدٌ اجتماعي يحدد ما

«الخطاب الإسلامي كما يقول حسن حنفي اجتهاد ذهني أكثر منه اجتهاداً واقعياً لإصدار حكم في واقعة جديدة»

يمكن أن يقال عن موضوع ما. والعديد من تعريفات الخطاب، ودراسات «تحليل الخطاب» مستمدة إلى حد كبير من أعمال ما صار يُعرف بـ«المدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب»، وعلى رأسها أعمال (ميشال باشي) وكتابه «التحليل الآلي للخطاب»، والفيلسوف الفرنسي (ميشيل فوكو) وكتابه «أركولوجيا المعرفة»، الذي كان له دور كبير أيضاً في نشأة تحليل الخطاب، فقد استطاع فوكو أن يحوّل تاريخ الأفكار إلى دراسة للخطاب ونظامه وأشكاله.

وبالإضافة إلى فوكو، هناك الفلاسفة الفرنسيون دولوز وجاك دريدا، الذين يتخذون من الخطاب أساساً لتحليلاتهم، ويرفضون أيَّ صياغة لمفهوم الجوهر الشامل، والكلية أو القيم الشمولية، «حيث يحتلّ مفهوم السلطة مكانة بارزة في أعمال دولوز وفوكو على وجه التحديد، وسيكون حاضراً ـ بل مُستهدَفاً ـ في كلّ تحليلاتهم الخطابية، بدءاً من الأعمال الأولى حتى مؤلَّفاتهم المتأخرة».

أهمية «المدرسة الفرنسية» -هناك مدارس أخرى ساهمت في إثراء دراسة الخطاب مثل المدرسة الأمريكية- أنها طوّرت دراسة الخطاب من خلال التوسع في مشروع تحليل الخطاب والتركيز على «الخطاب السياسي» من خلال الاستعانة بما يُسمى باللسانيات البنيوية وبنظرية «الإيديولوجيا» كما صاغها الفيلسوف الفرنسي الماركسي (لوي بيير ألتوسير) في مقالته «الإيديولوجية وأجهزة الدولة الإيديولوجية»، وتحدد المقالة مفهوم (ألتوسير) حول الإيديولوجيا الذي يستمد، بالإضافة إلى ماركس، من علم النفس عند فرويد، ولاكان حول اللاوعي، وتصف البنى والمنظومات التي تمكن وجود مفهوم الذات، هذه البنى، بحسب (ألتوسير)، هي عوامل كبت، وفي الوقت نفسه حتمية -من المستحيل التهرب من الإيديولوجية- أي ألّا تكون خاضعاً لها» .

المثير في نظرية ألتوسير حول تأثير الإيديولوجيا في الخطاب، وجعلها مفيدة في دراسة الخطاب هي أنه يستخدم مفهوماً تراثياً وفقهياً في الإسلام والأديان السماوية الأخرى، وهو مفهوم: الظاهر والباطن، أو ظاهر النص وباطنه.

من هنا فقد «رفض الاكتفاء بظاهر الخطاب ومنطوقه، فالإيديولوجيا في

«يمكننا العمل على استخدام تحليل الخطاب للوقوف على كافة الزوايا التي ينطلق منها الخطاب المتطرف المؤدي للإرهاب»

تقديره تضرب في اللاوعي بجذور، وهي التي لا تفصح عن نفسها إلا إذا جاوزنا الخطاب الظاهر إلى آخر أعمق غوراً، أي خطاب اللّاوعي الذي يمثّل في نهاية الأمر الإيديولوجيا».

وقد أشرت إلى (ألتوسير) بشكل مقصود، لأنني أعتقد أنّه أفضل من تحدث عن علاقة الخطاب بالخطاب السياسي والبنى الإيديولوجية الكامنة في هذا الخطاب، وفي أحسن الأحوال «العلاقة المعقدة بين الظاهرة اللغوية التي ينطق بها الخطاب السياسي، و«التشكل الخطابي» الذي تحدث عنه باشي (تلميذ ألتوسير) والظاهرة الإيديولوجية».

ويُصنف الباحثون الخطاب من حيث النوع إلى عدة أنواع؛ أهمها الخطاب السياسي: وهو خطاب الأطراف الفاعلة في السلطة (الحكومات، السياسيون) الذي يوجّه عن قصد نحو المتلقي للتأثير به وإقناعه بمضمون الخطاب الذي يتضمن أفكاراً سياسية، أو يكون موضوعه سياسياً، ويلجأ غالباً إلى استثارة الرموز في عقول المخاطبين من أفراد المجتمع ليتمكن من تحقيق هدفه؛ لأنّ الخطاب السياسي إفراز للمثيرات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس عليه، والواقع الذي يتناوله هو التفاعلات والصراعات والأزمات بين المجتمعات السياسية وما ينتج عنها.

والخطاب الديني: الذي وصفه الراحل الدكتور حسن حنفي، أستاذ الفلسفة في جامعة القاهرة، بأنه «خطاب أمْري تسليمي، يطالب بالإيمان بالغيب وبالعقائد، ويعتمد على الإرشاد والوعظ وتصوير الحياة الأخروية وما بها من نعيم وعذاب، وهو على أنواع؛ فقد يكون خطاباً عقائدياً كما هو الحال في علم الكلام، أو خطاباً باطنياً كما هو الحال في التصوف، أو خطاباً تشريعياً كما هو الحال في الفقه وأصوله. وللخطاب الديني أصول وفروع، وهو يعتمد على النص والعقل الذي يفسره ويستنبط منه الأحكام والقواعد والتوجيهات والمعاني والعبر.

الخطاب الإسلامي هو إذن، كما يقول حسن حنفي الذي رحل مؤخراً، اجتهاد ذهني أكثر منه اجتهاداً واقعياً لإصدار حكم في واقعة جديدة. هو اجتهاد مقرون بعملية النهضة عن طريق ربط الاجتهاد بالقضايا المستحدثة على الساحتين

الداخليـة والخارجيـة، الإقليميـة والعالميـة، في مواجهـة تحديـات حضاريـة جديـدة. وهـو اجتهـاد في ظـل ازدهـار العلـوم الإنسـانية وليـس مجـرد قيـاس منطقـي. هـو اجتهـاد يأخـذ بعـين الاعتبـار الظـروف الاجتماعيـة والاقتصاديـة والسياسـية المتجـددة مـن القدمـاء إلى المحدثـين.

ويوضـح: إنّ «الاجتهـاد الفقهـي والتجديـد الحضـاري صنـوان»؛ الاجتهـاد والتجديـد والعمـران، ٣ مفاهيـم يـؤدي بعضهـا إلى البعـض الآخـر لإحيـاء مـا اندثـر، وإيصـال مـا انقطـع، وبدايـة يبـدأ المجـددون والمصلحـون منهـا. يتسـع مفهـوم الاجتهـاد بحيـث يشـمل التجديـد في العلـوم الإسـلامية القديمـة، بـل في الموقـف مـن الآخـر، والموقـف مـن الواقـع الحـالي بـكل مشـكلاته الاقتصاديـة والاجتماعيـة والسياسـية والثقافيـة، لذلـك فالاجتهـاد كائـن داخـل النـص منـذ نشـأته، وليـس فقـط في تفسـيره وتأويلـه، يتطـور حكمـه بتطـور الزمـان وتغـير المـكان. هكـذا فعـل الشـافعي بتغيـير أحكامه مـن العـراق إلى مـصر.

ويضيـف حنفـي أنّ «الاجتهـاد ليـس مجـرّد آليـة منطقيـة لاسـتنباط الأحـكام؛ قضيـة كـبرى (وهـي الأصـل)، وقضيـة صغرى (وهـي الفـرع)، وحـد أوسـط (وهـو العلـة)، ونتيجـة (وهـي الحكـم)... بـل هـو تجديـد للخطـاب الديـني، وتحـوّل مـن النـص المـنزّل إلى النـص المسـتنبط، مـن الوحـي إلى العقـل، مـن التنزيـل إلى التأويـل، وبهـذا المعـنى فالخطـاب الإنسـاني هـو امتـداد للخطـاب الإلهـي، والخطـاب الجديـد امتـداد للخطـاب القديـم... في تواصـل وليـس في انقطـاع.

أعتقـد أنـه مـن هـذه النافـذة المشرعـة لفهـم الخطـاب، الـتي نُديـن بهـا للراحـل حسـن حنفـي، يمكننـا العمـل عـلى اسـتخدام تحليـل الخطـاب للوقـوف عـلى كافـة الزوايـا الـتي ينطلـق منهـا الخطـاب المتطـرف المؤدي إلى الإرهـاب، والنجـاح في تفكيكـه... ربّمـا.

«الإرهاب الأبيض»: إلى متى تتجاهل أمريكا الخطر الأكبر على أمنها؟

استقرت «الحكمة التقليدية» في مقاربة الإرهاب خلال العقدين الماضين -تقريباً - على أنّ معظم العمليات الإرهابية في العالم تنفذها الجماعات الإرهابية التي تنسب الى الإسلام، وما بات يُتعارف عليها في معظم الأوساط الأكاديمية والإعلامية والاستخبارية في العالم بإرهاب الجماعات الإسلامية، والتي بلغ عددها ٥٢ جماعة (معظمها سنّية)، وتشكل ما نسبته ٧٧،٦٪ من المجموع الكلي للجماعات الإرهابية للعام ٢٠١٨ البالغ ٦٧ جماعة، حسب تصنيف وزارة الخارجية الأمريكية التي تقوم بنشر قوائم سنوية -دورية باسم «الجماعات الإرهابية الأجنبية».

مغادرة الحكمة التقليدية

لكن يبدو أنه آن الأوان لمغادرة هذه الحكمة التقليدية، إلى غير رجعة، ذلك أنّ هناك الكثير من المؤشرات لظهور

«استقرت «الحكمة التقليدية» في مقاربة الإرهاب مؤخراً على أنّ معظم العمليات الإرهابية تنفّذها جماعات إسلامية»

اتجاهات خطيرة على احتمالية انبعاث موجات من إرهاب «الجماعات القومية البيضاء المتطرفة» في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا.

في هذا السياق تقول جانيت ريتمانوف - JANET REITMANNOV في مقالة مطولة لها في مجلة نيويورك تايمز بتاريخ ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠١٨ أنّه «لعقدين من الزمن تجاهلت استراتيجيات مكافحة التطرف المحلية -الأمريكية تنامي خطر «اليمين المتطرف جداً»، وفي أجواء اللامبالاة هذه نمت وانتشرت هذه الحركة المتطرفة، وقد فشلت الأجهزة الأمنية في أمريكا في رؤية الخطر، الذي باتت تشكله «جماعات اليمين المتطرف» أو الجماعات القومية البيضاء، واليوم فإنّها لا تعرف كيف توقف هذا الخطر».

في أجواء اللامبالاة هذه نمت وانتشرت هذه الحركة المتطرفة

تنتمي معظم الجماعات المتطرفة بأمريكا إلى ما يسمى»الحق البديل» thgir-tla eTh

تصاعد حركة «الحق البديل»

تنتمي معظم الجماعات المتطرفة في أمريكا اليوم الى طيف واسع من الجماعات يطلق عليه «الحق البديل» The alt-right, or alternative right وتشمل جماعات: القومية والعنصرية، الفاشية والنازية الجديدة، معاداة السامية، وإنكار المحرقة، الفوضوية، المتطرفين المسيحيين، المؤيدين لنظرية المؤامرة، الشعبوية، معاداة الإسلام، معارضة حقوق المرأة، والمثليين، معارضة الهجرة واللاجئين، والجماعات التي تدعو الى عزلة أمريكا والسياسات الاقتصادية الحمائية، والرأسمالية الفوضوية.

ويعود أول استخدام للمفهوم إلى الفيلسوف الأمريكي المحافظ، بول غوتفريد، في تشرين الثاني (نوفمبر) العام ٢٠٠٨، لكنه أخذ شكله الحالي منذ العام ٢٠١٠ مع ريتشارد سبنسر مؤسس حركة «البديل الجديد»، ومدير معهد السياسات الوطني الذي يصف نفسه بأنّه «قومي وطني أبيض».

وانتشرت الحركة بشكل كبير العام ٢٠١٦ بالتزامن مع حملة الرئيس الأمريكي دونالد ترامب للانتخابات، خاصة مع وجود شخصيات مهمة في إدارته مؤيدة للحركة مثل: ستيف بانون مستشار البيت الأبيض السابق، ومايكل فلين مستشار الأمن القومي السابق، وستيفن ميلر المستشار الخاص لترامب وعدد من النواب والمرشحين للحزب الجمهوري.

خطورة هذه الحركة تكمن في أنّها مرشحة لتكون الخطر الأكبر على أمن أمريكا في المستقبل خاصة جهة خطر الإرهاب الداخلي؛ ذلك أنه حسب إحصائيات

«الكثير من المؤشرات تنبئ بظهور اتجاهات خطيرة لانبعاث موجات من إرهاب «الجماعات القومية البيضاء المتطرفة» في الغرب»

«مركز قانون الحاجة الجنوبي» -وهو مركز متخصص في الحقوق المدنية خاصة للسود في ولاية ألاباما الأمريكية- فقد قتل وجرح أكثر من ١٠٠ شخص أمريكي خلال الفترة من ٢٠١٤-٢٠١٨ من قبل أعضاء في هذه الحركة.

وتؤكد «رابطة مكافحة التشهير» -وهي منظمة يهودية أمريكية تنشط في مجال الحقوق المدنية ومساعدة الأقليات واللاجئين خاصة السوريين في أمريكا ومحاربة الأسلاموفوبيا- أنّ حركة البديل كانت مسؤولة عن معظم العمليات الإرهابية العام ٢٠١٧ في أمريكا.

ولقد حفزت هذه الحركة نشاط الحركات المضادة، وعلى رأسها حركة معارضة للفاشية تُدعى (Antifa) مكونة من مظلة واسعة من جماعات اليسار المستقل بدون هيكلية تراتبية، تعود جذورها إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، والحزب الشيوعي الألماني، وهدفها الرئيس محاربة أيديولوجيا اليمين العنصري المتطرف مباشرة، وليس سياسياً؛ لذلك فهي تمارس عمليات الاحتجاج العملي بتخريب الممتلكات والعنف الجسدي والنشاط الرقمي ضد نشاطات مجموعات اليمين المتطرف أينما وجدت في أمريكا.

تزايد الاستقطاب

وهو أمر أدّى إلى نوع من الاستقطاب السياسي والاجتماعي والثقافي في المجتمع الأمريكي، يتزايد بوتيرة عالية خاصة مع وصول دونالد ترامب للسلطة، واتهامه من قبل قطاعات واسعة بدعم إيديولوجيا اليمين العنصري المتطرف في أمريكا والخارج؛ ولذلك لوحظ أنّها نشطت بالاحتجاجات منذ العام ٢٠١٦ ضد الرئيس ترامب شخصياً، والجماعات المؤيدة له من اليمين المتطرف، وقد وصفها «ناعوم تشومسكي» بأنّها بنشاطها العنيف والمباشر، إنّما تقدم هدية لليمين المتطرف، ونظراً لطبيعة احتجاجاتها العنيفة فقد وصفت من قبل بعض المعلقين الأمريكيين بأنّها «جماعة إرهابية».

كل هذا يعني في النهاية أنّ حالة الاستقطاب التي تعيشها أمريكا حالياً يمكن أن ترفع من وتيرة العنف السياسي والإرهاب الذي ما زالت دوائر صنع القرار الأمنية والقانونية تصر على وصمه بجرائم الكراهية، وليس الإرهاب.

(stnemevom tsicamerpus-etihw) «حركة تفوّق الأمة البيضاء»

ولذلك فإنّ هناك نقاشاً وجدلاً واسعاً في الأوساط القانونية وخبراء الإرهاب في أمريكا حول إعادة تعريف مفهوم الإرهاب والعنف السياسي في ظل المستجدات والتطورات الأخيرة على الساحة الأمريكية، خاصة بعد عملية معبد «شجرة الحياة» في مدينة بتسبيرغ-بنسلفانيا في ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠١٨ التي قُتل فيها ١١ مصليا (٨ رجال و٣ نساء) من اليهود كبار السن، وجُرح آخرون، وذلك على يد شخص متطرف ومعادٍ للسامية واليهود والمهاجرين يُدعى روبرت باورز، وقد وصفت الحادثة من قبل المحققين بأنّها «جريمة كراهية» وليس إرهاباً!

والعملية الأخرى وهي ما تُعرف الآن بعملية «الطرود المفخخة التي أُرسلت الى ١٣ شخصاً وجهة معروفة بمعارضتها السياسية الواضحة لترامب، وعلى رأسهم الرئيس السابق باراك أوباما ومحطة (سي إن إن)، واعتُقل على أثرها المدعو سيزار سايوك (٥٦ عاماً)، الذي ذكرت وسائل الإعلام الأمريكية أنّه من أنصار ترامب المتشددين، وهي عملية وُصفت في وسائل الإعلام المعارضة لترامب بأنّها إرهابية، علماً أنّ «الإستراتيجية الوطنية لمكافحة الإرهاب»، التي صدرت في ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠١٨، (سبق أن تناولها «حفريات» بالتحليل)، أشارت إلى تصاعد وتيرة الإرهاب المحلي غير التقليدي ممثلاً في إرهاب المتطرفين العنصريين اليمينيين، وتطرّف المليشيات في العديد من الولايات الأميركية، وأشارت الإستراتيجية إلى ارتفاع نسب هذه الأنواع من الإرهاب خلال السنوات القليلة الماضية.

«نظراً لطبيعة احتجاجاتها العنيفة فقد وصفت من قبل بعض المعلقين الأمريكيين بأنّها «جماعة إرهابية»»

تجاهل ولامبالاة!

كل هذه العمليات، والاستقطاب السياسي الحاد، والخطاب السياسي المتوتر بين الحزبين الديمقراطي والجمهوري حالياً في أمريكا وسط أجواء انتخابات التجديد النصفي لأعضاء الكونغرس التي جرت في ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) العام ٢٠١٨، تشير على خطورة الإرهاب الذي يمكن أن تشكله جماعات اليمين المتطرف في أمريكا مستقبلاً، في ظل تقارير إعلامية تؤكد أنّه ليس هناك اهتمام كبير، ومعلومات موثقة، وكافية لدى الأجهزة الأمنية الأمريكية عن هذه الجماعات سواءً قادتها أو أعدادها، أو طبيعة نشاطاتها، أو حتى الموازنة المخصصة لمكافحة نشاط هذه الجماعات، مقارنة مثلاً بالجماعات الإسلامية، مع استمرار تهديد الجماعات الإرهابية الإسلاموية التي قد تستغل أجواء هذا الانقسام السياسي لتنفيذ عمليات إرهابية خاصة عن طريق «الذئاب المنفردة».

في النهاية؛ تؤكد جانيت ريتمانوف، أنّ الجماعات البيضاء المتطرفة قتلت من الأشخاص في أمريكا منذ هجمات ١١ أيلول (سبتمبر) العام ٢٠٠١ أضعاف ما قتلت أي مجموعة إرهابية أخرى في أمريكا، وأنّ ٧١٪ من الإصابات التي تسببت بها التطرف في أمريكا خلال الفترة ٢٠٠٨-٢٠١٧ تعود إلى الجماعات المتطرفة البيضاء أو ما يسمى (white-supremacist movements) «حركة تفوّق الأمة البيضاء»، بينما الجماعات الإرهابية الإسلامية كانت مسؤولة عن ٢٦٪ فقط من العمليات الإرهابية في الأراضي الأمريكية.

ولقد بلغ عدد الأحداث الإرهابية العام ٢٠١٧ ما مجموعه ٦٥ حادثة، نتج عنها مقتل ٩٥ شخصاً، ٦٠٪ منها تقريباً كان محركها: العنصرية، والعداء للإسلام، والعداء للسامية، والعداء للحكومة الفيدرالية، والإيديولوجيا المختلفة لليمين المتطرف.

«حالة الاستقطاب التي تعيشها أمريكا حالياً يمكن أن ترفع من وتيرة العنف السياسي والإرهاب»

أمـا إيديولوجيـا «اليسـار المتطـرف» مثـل؛ حمـاة البيئـة، وغيرهـم، فقـد كانـوا مسـؤولين عـن ١١ هجومـاً فقـط، بينمـا كان المتطرفـون الإسـلامويون مسـؤولين عـن ٧ هجمـات فقـط داخـل الولايـات المتحـدة.

فهـل يتخـلى صنـاع القـرار داخـل أمريكا اليـوم عـن «الحكمـة التقليديـة» في مقاربـة الإرهـاب، وتصويـر المجتمـع الأمريـكي بأنّـه محصـن ضـد الإرهـاب الداخـلي، وأنّ الخطـر محصـور فقـط بالآخـر المختلـف الإسـلامي أو الـشرق أوسـطي أو الملـون؟ وإلى مـتى سـيتجاهلون المعطيـات الـتي تؤكـد أنّ الخطر القـادم هـو خطـر مـن داخـل المجتمـع الأمريـكي نفسـه، ومـن صلـب منظومتـه المعرفيـة المأزومـة حاليـاً؟

ما موقع الشباب في معادلة الإرهاب المعولم؟

تبدو مسألة الاتفاق على تعريفٍ محدّد لمفهوم الإرهاب من المستحيلات، خاصّة في ظلّ وجود أكثر من ٢٠٠ تعريف مشهور للمفهوم في أدبيات دراسة الظاهرة.

ولذلك؛ فإنّ أهم الباحثين في أدبيات الظاهرة، دعوا للخروج من هذا المأزق المعرفي والسياسي إلى التركيز ليس على مسألة التعريف؛ بل على التفريق بين الإرهاب وغيره من أشكال العنف السياسي.

والمفيد في الأمر هنا؛ هو أنّ كلّ تعريف يُعتمد من قبل أيّ باحث يُفترض أن يخرج بنتائج مختلفة تفيد البحث العلميّ للظاهرة، وما يقابلها أو يرتبط بها من ظواهر، أو اتجاهات راهنة، ومستقبلية وتساعد المجتمع العالمي في مسألة فهم هذه الظاهرة وإيجاد الحلول المناسبة للحدّ من خطرها ومكافحتها.

«تتجلّى أهم مآسي الإرهاب العالمي اليوم في موجات التشريد والهجرة واللجوء القسري من أماكن الصراعات والحروب والأزمات»

ومع إدراك صعوبة وضع تعريف لمفهوم الإرهاب يحظى بقبول جميع الباحثين، فإنّ التعريف الإجرائي لمفهوم الإرهاب، هو: عنف سياسيّ متعمَّد، أو التهديد به؛ بهدف زرع وبثّ حالة من الخوف والرعب والارتياب المستمرّ، ويستهدف الأهداف المدنية والعسكرية والأمنية، وتخطّط له وتنفذه «أطراف فاعلة دون الدول».

وعليه، فإنّ هذا التعريف يشتمل على مجموعة من الركائز، هي:

١. العنف لدوافع سياسية (دون بحث شرعيتها؛ لأنّها مسألة بحث قانونيّ، والورقة ليست كذلك) في إطار التأثير على سلوك الطرف المستهدف وبنيته.

٢. الفاعلون (أطراف فاعلة ما دون الدول) الجماعات والمنظمات الإرهابية مثل؛ القاعدة وداعش وغيرهما، والأفراد (الذئاب المنفردة) الذين يعملون بشكل مستقل عن الجماعات الرئيسة.

٣. استهداف المدنيين والعسكريين ورجال الأمن.

٤. تخطّي الزمكان (عولمة استمرارية حالة الرعب والخوف والارتياب، والعمل المقصود على استمراريتها في كلّ مكان في العالم).

الإرهاب العالمي

السؤال الجوهري الذي يواجه مجتمع الدول والمجتمعات في العالم في الحقبة الحالية من العولمة هو: كيف تواجه العنف بشكل عام والأسباب التي تحرك وتحفز وتدفع إلى الإرهاب؟ وما هي الأدوار التي يمكن أن تقوم بها الأطراف المختلفة في المجتمع، وعلى رأسها الشباب، في مكافحة التطرف العنيف والإرهاب؟

ثمّ محاولة الإجابة عن سؤال: ما هو هذا «المشروع» الذي يستطيع حشد وجمع أكثر من ٤٠ ألف مقاتل من ١٢٠ دولة في العالم مستعدين للتضحية بالغالي والنفيس وللموت من أجله؟

وإذاً، فهذا المشروع ليس سهلاً، أو عابراً، وبناءً عليه؛ يستحق من الجميع المزيد من التعمّق والدرس الموضوعي لفهمه واستيعاب دروسه الحالية وا لمستقبلية .

وتشير إحصائيات «معهد الاقتصاد والسلام»، لعام ٢٠١٧، إلى أنّ الدول التي تشهد صراعات عسكرية عنيفة، تعرّضت لخطر الإرهاب أكثر من غيرها، وأنّ الدول

الأفراد (الذئاب المنفردة) يعملون بشكل مستقل عن الجماعات الرئيسة

العربية التي تأثرت أكثر بموجات ما يسمى بالربيع العربي تعرّضت لعمليات إرهابيه أكثر.

وأنّ ٩٩٪ من مجموع قتلى العمليات الإرهابية، و٩٦٪ من مجموع العمليات الإرهابية عالمياً، حدثت في الدول التي تعاني من صراعات عسكرية، والدول التي تعاني من ارتفاع معدلات الإرهاب السياسي.

والإرهاب مشكلة عولميّة؛ بمعنى أنّه يتحرك في فضاءات العولمة، محمّلاً بكلّ آلياتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية، ولذلك لا يمكن معالجته بالوسائل الأمنية والعسكرية والحروب فقط، وإذا كان الإرهاب، مهما كان مصدره أو شكله، «يستحق الإدانة فإنّ الإرهاب المضاد لا يختلف عنه».

وفي ظلّ هذا الوضع، يطرح السؤال: أين موقع الشباب في معادلة الإرهاب المعولم؟. لأنّه، لا يمكن اليوم، وفي ظلّ سيرورة العولمة الطاحنة الفصل بين الإرهاب الداخلي أو المحلي والارهاب على مستوى الدول.

الشباب والإرهاب العالمي

كان السكرتير العام للأمم المتحدة «بان كي مون»، خلال جلسة لمجلس الأمن ٢٣ آذار (مارس) ٢٠١٥، خصصت لبحث العنف والتطرف، قد أكّد أنّ الشباب يشكّلون نصف المجتمعات التي تتعرض لخطر التطرف الديني والإرهاب.

«انتشار الشعبوية واليمين المتطرف في أوروبا وأمريكا زاد من وتيرة الإسلاموفوبيا والخوف من الأجانب وفي مقدمة هؤلاء فئة الشباب»

ومن المؤسف أنّ معظم هذه الدول هي عربية وإسلامية، وعلى رأسها الآن: سوريا والعراق وليبيا والصومال واليمن والباكستان وأفغانستان ونيجيريا.

وفي تلك الجلسة التي ترأسها الأمير الحسين بن عبد الله الثاني، كأصغر رئيس جلسة لمجلس الأمن في تاريخ المنظمة، دعا الأمير أيضاً إلى ضرورة «وقف تغذية التطرف بدماء الشباب»، وأكّد أنّهم أول ضحايا الإرهاب والتطرف الذي يشكل أكبر خطر يواجه السلم العالمي».

وتتجلّى أهم مآسي الإرهاب العالمي، اليوم، في موجات التشريد والهجرة واللجوء القسري من أماكن الصراعات والحروب والأزمات؛ حيث يشهد العالم اليوم أعلى مستويات التشريد، أكثر من أيّ وقت مضى؛ إذ شرّد ٥٩،٥ مليون شخص في جميع أنحاء العالم من أوطانهم.

ومن بين هؤلاء، هناك ما يقرب من ٢٠ مليون لاجئ، أكثر من نصفهم من الشباب تحت ١٨عاماً، واعتباراً من منتصف شهر آذار (مارس) ٢٠١٦، سجلت مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين ٢،١ مليون سوري لاجئ في مصر والعراق والأردن ولبنان، وسجلت الحكومة التركية ١،٩ مليون سوري، وسجلت المفوضية أكثر من ٢٨ ألف لاجئ في شمال إفريقيا، وكان هناك ما يقرب من ٩٠٠ ألف طلب لجوء من السوريين في أوروبا، بين عامَي ٢٠١١ و٢٠١٥.

ولعلّ مما يزيد من قتامة هذا المشهد؛ الوقوف عند حقيقة أنّ نصف الشباب العربي، بحسب الاستطلاعات الحديثة، يفكر بالهجرة إلى الخارج، خاصة أوروبا، وأعداد أخرى هاجرت أو اضطرت إلى الهجرة القسرية واللجوء نتيجة الحروب والصراعات العنيفة؛ في العراق وسوريا وليبيا واليمن والصومال وأفغانستان.

والخطير في الأمر؛ أنّ هذه البيئة تشكّل مجالاً مناسباً لاستهداف فئة الشباب من قبل الجماعات الإرهابية، التي تستغل حالة الضعف والإحباط والغضب والتمرد، الذي تشكّله مآسي الحروب والصراعات للتجنيد ونشر أيديولوجيتها.

ورغم أنّه لم يثبت أنّ هناك علاقة بين زيادة الهجرة واللجوء وزيادة العمليات الإرهابية، خاصة في الغرب، إلّا

انتشار الإسلاموفوبيا بشكل لافت

أنّ انتشار الشعبوية واليمين المتطرف في أوروبا وأمريكا، زاد من وتيرة الإسلاموفوبيا والخوف من الأجانب، وفي مقدمة هؤلاء فئة الشباب.

وتؤكد دراسة لمركز «رند» الأمريكي؛ أنّ الفقر والحرمان المادي لهما أثر أقلّ على درجة التطرف بالمقارنة مع ما يتخذه البلد المستضيف للاجئين والمجتمع الدولي من أفعال، أو ما يمتنعان عن اتخاذه من الأفعال.

ولا شكّ في أنّ الجماعات الإرهابية تركز على تجنيد «شباب» لاجئين، غالباً ما تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٢٤ عاماً، ويمكن أن يبدأ التطرف قبل سنّ ١٥ عاماً، وتزداد هذه المخاطر إذا لم يكن أمام الشباب سوى فرص قليلة للتعليم ما بعد المستوى الابتدائي، وإذا كانوا يشعرون بالتمييز، أو إذا كانت الجماعات المتطرفة تقدم التدريب.

إنّ المقاربة التي تدّعي أنّ الشباب الذين تجذبهم الجماعات الإرهابية، أو ينتمون لهذه التنظيمات، يتعرضون لغسل دماغ، أو هم فقراء معدمون لا يجدون قوت يومهم، وعاطلون عن العمل، أو مهمّشون؛ هي مقاربة مضلّلة وخاطئة، تنزع عنهم الحافز والإدارة والتخطيط وحرية الإرادة والعقلانية، ولا تساعد أبداً في فهم وتحليل أسباب توجه الشباب للتطرف والإرهاب.

وتشهد حقبة الإرهاب العالمي الحالية كثيراً من الاتجاهات الجديدة

«الجماعات الإرهابية تركز على تجنيد لاجئين غالباً ما تتراوح أعمارهم بين ١٥ و٢٤ عاماً»

والمميزة، منها؛ أنّ دولاً مثل (بريطانيا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا والسويد والنرويج والدنمارك) أصبحت تُصدّر المتطرفين والإرهابيين الإسلاميين الشباب، ذكوراً وإناثاً، إلى مناطق الصراع التي فتحت ثورات الربيع العربي أبوابها، خاصة في العراق وسوريا وليبيا واليمن والصومال.

ولا يحتاج المتابع لهذا المشهد السوريالي إلى كثير عناء ليلحظ ما يلي:

١. أنّ التطرف العنيف والغلوّ الديني كانا وراء معظم العمليات الإرهابية في العالم، رغم الرطانة الواسعة والدفاع المستميت عن قيمة التسامح في الأديان عامة.

٢. أنّ معظم أعضاء الجماعات الإرهابية في العالم، هم من الشباب، خاصّة في جماعات مثل القاعدة وداعش، مقارنة بجماعات اليمين المتطرف في أمريكا وأوروبا.

٣. أنّ فئة الشباب، من سنّ ١٧ إلى ٢٧ عاماً، هم غالبية المنفذين للعمليات الإرهابية والانتحارية في العالم، سواءً من جماعات تدّعي الإسلام، أو من جماعات اليمين المتطرف في الغرب أو آسيا.

٤. أنّ الجماعات الإرهابية على مختلف أشكالها وأيديولوجيتها تركز على أهمية تجنيد فئة الشباب في عملياتها المختلفة.

٥. أنّ تنظيم داعش يعتمد في تجنيده على طلبة الجامعات أو المدارس الثانوية لاتصالهم الدائم بالإنترنت، ولنشاطهم المستمر بوسائل التواصل الاجتماعي، وأيضاً لسهولة السيطرة على عقولهم من خلال تقنيات نفسية محددة برعوا فيها، وأهم الأساليب النفسية المستخدمة من قبل داعش للسيطرة على العقول الشباب؛ هي تقنية الإكراه، أو ما يسمى تقنية التلاعب النفسي، ومن خلال هذه التقنيات النفسية يتلاعب داعش بعقول الشباب، وخاصة المراهقين، ليجنّدهم ضمن صفوفه، كإرهابيين، وبذلك فإنّ ما يقوم به هؤلاء لا يعدّ خياراً بالنسبة إليهم؛ فهم غير مدركين ذهنياً أنّهم متورطون بعمليات قتل وذبح؛ لأنّه، وبفضل تقنيات مسح الدماغ، التي مورست على عقولهم بدرجة كافية تجعلهم يقومون بعملية ذاتية تخيلية دائمة، وهو ما يسمى (projection)، الذي يجعلهم يظنون أنّهم يجاهدون ويقاتلون في سبيل أهداف نبيلة؛ كإيجاد مدينة العدل الكاملة، والقضاء على الكفرة وإبادتهم، وإقامة الخلافة.

لا توجد دولة في العالم بمعزل عن الإرهاب

٦. نحو ٤٠٪ ممن تجندهم الجماعات الإرهابية هم من الطلبة والتلاميذ المتفوقين، الدارسين للاختصاصات العلمية، وأغلب من تمّ تجنيدهم، وفق الكثير من الدراسات المتخصصة، تتراوح أعمارهم ما بين ١٥ و٣٠ عاماً.

٧. تؤكّد بعض الدراسات أنّه لا يوجد «نموذج عام» يحمي من الانخراط في العمل الإرهابي، ما يعني أنّه لا توجد دولة في العالم بمعزل عن الإرهاب وتورط شبابها في هذه التنظيمات الإرهابية.

٨. الدول التي تعدّ الأكثر تسامحاً وانفتاحاً وديمقراطية في العالم؛ على غرار الدنمارك والنرويج والسويد وهولندا وبلجيكا، هي أكثر الدول التي صدّرت مقاتلين إسلاميين مقارنة بعدد سكانها إلى ساحات القتال في سوريا.

تركزت اختراقات التنظيمات الإرهابية لمؤسسات التعليم في بعض الدول على تخصصات وأنشطة أكاديمية محددة؛ لأهميتها وفائدتها اللوجستية والمستقبلية لتلك التنظيمات من جهة، وعلى طلبة محدّدين، سواء لتفوقهم الدراسي، أو لانتمائهم المذهبي أو الجغرافي؛ حيث لوحظ تركيزها على استقطاب الطلبة والتلاميذ المتفوقين في اختصاصات علمية، مثل: الطبّ والفيزياء والكيمياء والهندسة الإلكترونية، وتجنيدهم في شبكات وخلايا تتولى بعد إخضاعهم لعملية غسل دماغ تسفيرهم للقتال في صفوف «التنظيمات الإرهابية»، ليستفيدوا من مهاراتهم في

استخدام مواقع التواصل الاجتماعي على شبكة الإنترنت وصناعة المتفجرات والتمريض.

الشباب في مواجهة الإرهاب

الآن، وبعد هذا العرض الوصفي لحالة الشباب سواء في العالم، فماذا يستطيع الشباب فعله في معركة الأفكار ومحاربة التطرف العنيف ومكافحة الإرهاب؟ وما هي الأدوار التي يمكن أن ينشطوا من خلالها؟

وهنا، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ وضعية الشباب، خاصة في الدول التي تعاني من الصراعات والحروب، والأزمات السياسية والاقتصادية، مثل؛ الدول العربية، محكومة بحراك وآليات العمل في تلك الدول، وبالتالي؛ فإنّ مجالات النشاط قد تبدو ضيقة وصعبة؛ لأنّ الشباب يكون محكوماً أولاً بإيجاد حلول لمشاكله الذاتية الخاصة به وبعائلاته، ولا يستطيع التحرك خارج إطار تعاون المشترك بين بنى المجتمع ومؤسسات الدولة، وكثيراً ما يجد نفسه مكبّلاً بسلاسل الثقافة الشعبية السائدة.

نحو ٤٠٪ ممن تجندهم الجماعات الإرهابية هم من الطلبة والتلاميذ المتفوقين الدارسين للاختصاصات العلمية

وفي هذا المجال؛ تعدّ المدرسة، خاصّة في المراحل الإعدادية والثانوية، أهم الأماكن التي يجب التركيز عليها في نشر الوعي حول هذا الملف، فالطلبة في بداية التشكيل والانفتاح الذهني؛ لذلك يجب تعريفهم بخطورة الإرهاب، وتتم هذه التوعية من خلال التركيز على المناهج الدراسية المقررة للطلبة في عدة مراحل دراسية، ولمختلف المواد، وتعزيز ثقافة الحوار وقبول الآخر وآليات الفكر النقدي، خاصة إذا كانت هذه التوعية تنقل من خلال المدرسين الشباب أيضاً.

كما أنّ مؤسسات التعليم العالي تتحمّل دوراً كبيراً في مكافحة الإرهاب والتطرف، من خلال الدور التنويري التثقيفي للطلبة والمجتمع، بكافة مكوناته، والتركيز على نقد وكشف سلبيات الأفكار المتطرفة التي تؤدي إلى الإرهاب، وتشجيع الطلبة على المبادرات الفردية والجماعية التطوعّية، التي تشجع على ثقافة الحوار والنقد والتواصل، وتشجيع تأسيس الأندية الجامعية المختصة بالعمل المجتمعي التطوعي.

ونظراً إلى الدور الخطير والحيوي الذي باتت تلعبه آليات العولمة التكنولوجية، خاصة وسائل التواصل الاجتماعي في نشر الإرهاب والتجنيد والدعم اللوجستي والدعاية، فإنّه بإمكان الشباب من خلال التعاون مع بعضهم البعض، النشاط والتحرك المضاد، من خلال تشكيل مجموعات ومبادرات بالاشتراك مع مؤسسات المجتمع المدني لمكافحة الإرهاب ومحاربة التطرف العنيف.